صاحبها ورئيس تحريرهـا
مدحة عكاش
MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية تصدر في دمشق

دمشق ـ ص٠ب (٢٥٧٠) هاتف ٢٢٩٩٨٤

شباط
١٩٧٧

بقلم :

خير الدين الزركلي

خير الدين الزركلي قنديل انطفأ ، كان آخر القناديل من الرعيل الاول ، التي كانت تنير للامة العربية سبيلها ، فانطفأت ، واحدا تلو الاخر ٠

شاعر : نذر شعره لوطنه ، لآماله ٠٠ لآلامه ٠٠ عرف قدسية الكلمة ، فعاش في محرابها ، وألهب بها الغاصبين والمستعمرين بشواظ من نار ، بقدر ما ألهب المشاعر ، وأثار العواطف ، وأثر في العقول ٠

ما هام في شعره ، ما تغزل وما غوى ، أحب وطنه بكل مشاعره وأحاسيسه، فكان بشعره الشعلة المضيئة للتائهين في دروب الحياة ٠

مجاهد : قاتل المستعمرين ، فتغنى ، وتغرب وتشرد ، وحكم عليه بالاعدام مرتين ، فما خاف وما ونى وما سكت ٠ وعانى ممن كان يظن بهم الوفاء ، وما وفوا ، وتذوق مرارة خيبة الامل ، بمن كان قد عقد عليهم وطنه آماله ٠٠ فأساؤوا الامانة ٠٠

مؤرخ : غاص في أعماق التاريخ ، وعاش في رحابه وبين رجاله ، يبحث وينقب ويستقصي آناء الليل وأطراف النهار ، سنين طويلة ، فخرج للناس بكتابه « الاعلام » في عشرة أجزاء أتبعها باثنين ٠

انه ، رحمه الله ، علم من الاعلام ٠

و « الثقافة » تضع عددها الخاص هـذا عن الشاعر المجاهد والمؤرخ « خير الدين الزركلي » بين يدي القارىء العربي ، وفاء منها وتقديرا للرجل الكبير ، وليكون وثيقة تاريخية ، وعدة للاجيال القادمة ، يستشفون منه تاريخ أمتهم ، ونضال رجالها ٠

رحم الله الفقيد ، فقد كان علما خسرناه ، وشاعرا مجاهدا فقدناه ٠ وعوض الامة العربية عنه خيرا ٠

رئيس التحرير

كلمة السيدة وزيرة الثقافة

د. نجاح العطار

ايها الاخوة :

عندما يتصدى النثر لتكريم الشعر ، يكون ثمة طموح من نوع غريب ، فيه من الجرأة بمقدار ما في يد الانسان وهي تحاول قطف نجم السماء .

وليس ذلك لعجز النثر عن التعبير عن جوهر الروح وسر الكائنات ، بل لقوة الشعر ، هذا الذي يرتفع بجناحي نسر ، ويكون على من يريد اتباعه في دروب التحليق ان يمتلك جناحين اسطوريين ليحلق بهما في الاعالي التي صار اليها .

اننا هنا لتكريم شاعر فأية كلمات هذه التي خلقت لتكريم الشعراء ، وضفر الالفاظ عقودا منارجوان لتكليل هامات النسور ، ونحن هنا لاحياء ذكرى شاعر ، اعطانا بشعره ذكرا حيا ، فمن في براعته قبس من تلك الحرائق التي يشعلها الشعراء اضواء هداية على الطرق ، وزيتها من دمهم الذي يتوهج زيتا لا أكرم في الزيوت ولا أضوأ في الانارة ، ونحن هنا لنجلو صورة شاعر ، والالوان ، على شموخها ،تتضامن عندما يراد لها ان ترسم صور الذين كانوا في الشموخ منارات شاهقة ، تطل على الامداء ، فاذا الاشرعة التائهة في اليم تهتدي سواء السبيل الى موانيء السلامة .

انما التكريم هذا لو استطعناه لكان بعض واجب لمن وفى لواجبه وزاد ، فحمل الأمانة الشعرية ، اذ هي السلوك

وفي الاداء ، تطابق لما في الحياة وفي القصيدة من توافق يبلغ بصاحبه ان يكون هو ذاته في الحالتين : مناضلا ولا اصلب.

ان الاغاني تفيض ، اذا هي عجزت عـن ان تكون اغاني شدو لمن حدا قافلـة الجهاد في الزمن الصعـب ، يوم العروبة في الاسار ، وقبضة الارهـاب بطش اسود يلاحق كل من همس بقوميته ، ناهيك عن الهتاف بها ، وعلى رؤوس الاشهاد .

في تلك الايام الحالكة ، والسلطنة العثمانية قيد في الايدي وعلى الافواه ، والمشانـق تنصب لاحرار العرب والجمعيات العربية السرية ، برغم هذا البطش كله ، تعمل جاهدة لخلع النير التركي وازاحة الكابوس الرصاصي ، تفتح وتوقد ذهن خير الدين الزركلي ، ووعى كل المظالم النازلة ببني قومه ، وتململ منها واستعد لمقاومتها .

يومها كان في الشباب ، ويحمل كل حماسة الشباب ، وقد حماه من البطش التركي ان الثـورة العربية الاولى انطلقت من الحجاز ، واجتاحت ، على اجنحة رياح عاصفة، البلاد العربية فحررتها من النير العثماني ، فكانت الدولة العربية الاولى هنا في دمشق ، وكانت في ديـار الغرب ، معاهدة سايكس بيكو الغادرة ، وبموجبها نزلت القوات الفرنسية في الشواطىء السورية وعلى اثرها دخل غورو سورية ليختال ثياها بغزوة الدامي الذي كان احدى نتائج تقاسم الوطن العربي بين دول الحلفاء .

لقد شحذ الجزارون المدى واغمدوها بالضحيـة البريئة . والوعود التي قطعت عصفت بها اهواء المطامع الاستعمارية ، وهكذا تهاوت الامال العراض في وهـدة خيبة عريضة .

ومن جديد بدأ الكفاح ،

ومن جديد ارتفعت الاصوات ،

وطلع الزركلي ليكون رائدا في الشعر الوطني ، وليكون صوته المفعم بالشجاعة ، دعوة الى الكفاح ضـد تقسيم البلاد العربية واحتلالها انه يهتف بالعرب :

فيم الونى وديـار العرب تقتسم
أين العهود التي لم ترع والذمم

هل صح ما قيل من عهدة ومن عدة
وقـد رأيت حقـوق العرب تهتضم

ما بال بغداد لم تنبس بها شفـة
وما لبيروت لم يخفـق بهـا علـم

نسجو على الضيم والاطماع حائمة
ونكظم الغيظ والاكبـاد تضطرم

لكن الحقيقة تظل بغير صدى والسؤال بغير جواب . والشاعر الذي في كلماته خميرة الثورات المقبلة ، يهتـف من جديد ويحض على المقاومة والبذل والمفادات ، وينادي قومه العرب الى قتال المستعمرين بغير هوادة .

هل كان يعرف ، في تلك الظروف ، ما قيمة سلاحه الشعري وكلماته اللاهبة ، في اشعال هشيم الانتداب الذي يخشى الشرارة ان تندلع وتضرم الحرائق من حوله في كل مكان ؟ من المؤكد انه كان يعرف ،فالشعر في النصف الاول من هذا القرن ، حمل رايـة المقاومة على جبهة الفكر الكريمة ، ورفعها عاليا ، وبفعلها وتحت لواء النداء الذي كانت تطلقـه قويا جهوريـا احتشـد الناس وولـدت المقـاومـة .

وكان المستعمرون ، ايضا ، يعرفون خطر هذا الشعر فأصدروا حكما بالاعدام على الزركلي ، مما اضطره الى ان يرحل ملتحقا بالثوار حاملا ايمانه زوادة سفر وعروبته زاد حياة . ان العروبة هنا أيام النضال ضد الاستعمار ، هي النسغ الروحي لمعنى الوجود . والجامع الوحدوي ضد التجزئة ، والدافع الى التشبث بالارض والى القتال ضد الاحتلال. كما هي الحال الان ، في نضال اخوتنا عرب فلسطين المحتلة ضد الاستعمار الاستيطانـي الصهيوني ، والهامات العروبة هذه ، امدت الشاعر بروح المقاومـة طوال فترات الكفاح .

فمن فلسطين والاردن والحجاز ومصر ، تابع الزركلي نضاله الشعري ، فأصدر المستعمرون حكما ثانيا عليـه بالاعدام ، لكن الحكمين لا ينفذان والشاعر بعيـد ، والمستعمرون يدركون ان احكامهم الظالمة ليست للتنفيذ بل للارهاب ، وكان ارهابهم ينز دما من جراحات الرجال، وكانوا يريدون لهذا الارهاب أن ينهش مسعورا لحـوم الرجـال .

ويطول الكفاح ومعه يطول النفي والغربة والحنين ،

يطول الليل ، ويطول التشرد والعذاب ، وتنبثق النجوى، تراتيل صلاة ، في منافي أقام الشاعر فيها معابد للشوق • ان الوطن يغدو صورة الاشياء الحبيبة في الذات • صورة الام والاخت والاحباب والاصحاب ، صورة ياسمينة الدار ، وبركة الماء ، وخضرة المرج • صورة ازهار الغوطة في الربيع ، وعصفورة النيربين في الاصائل واصفرار الخوخ في الصيف ، وتلال البيادر في الحصاد ، صورة كل ما يهيج الذكريات فاذا هي دموع ولا دموع ، لانها توق نفس غريبة ، وذوب قلب يسيل ، ويسيل ويسيل •••

العين بعد فراقها الوطنا
لا ساكنا ألفت ولا سكنا

ريانة بالدمع أقلقها
الا تحس كرى ولا وسنا

كانت ترى في كل سانحة
حسنا وباتت لا ترى حسنا

والقلب لولا أنة صعدت
انكرته وشككت فيه أنا

ليت الذين احبهم علموا
وهم هنالك ما لقيت هنا

ما كنت احسبني مفارقهم
حتى تفارق روحي البدنا

ان النفي عابر ولكن الحنين مقيم ، النفي ابعاد للجسد ، لكن الروح ، من يستطيع ان يحول بينها وبين ان تقيم ، وان ترف وان تعود من رفيفها بغصن مزهر أو نغمة عطر من دمشق •

ودمشق في القلب ، ويا اخوتي ، متى كانت دمشق الا في القلب ؟ هذه ، مدينتنا ، عاصمتنا ، تاريخنا ، مجدنا ، حتى نزحنا عنها ولم يراودنا الف حنين للرجوع اليها ، واذا لم نرجع فنحن نقيم على قلق، وعلى رجاء ، ونحن نحتج لها بسبب البعد عنها ، ونعتذر اليها كما اعتذار الندى اذا امسك به الليل عن ري الشقائق العطشى :

أمضيت عنك ولو ملكت أعنتي
لم تنبسط بيني وبينك بيد

أترينها الايام تجمع بيننا
وترين عهد صفائها سيعود

أمسي وأصبح كالمدله حائرا
يعتادني التأريق والتسهيد

ويظل الزركلي على تأريقه وتسهيده زمنا طويلا ، ثم يعتادهما ويحبهما كأنما يخشى ، ودمشق قد غيرت من بنيانها ما غير الزمن من شبابه ، أن يعود فلا يجد ملاعبه واترابه ، ولا يجد طرقه ولداته ، فأثر أن يحتفظ بالصورة عن الاصل ، وان يظل على حقيقته ، ويضن بهذا الحنين ان ينكفىء ويزول ، لذلك فهو يقول في دمشق بعد ربع قرن :

وقفت بها والعين بالدمع ثرة
وناجيتها والقلب بالذكر هائم

طغى زخرف العمران حتى استابحها
فلم يبق الا رسمها المتقادم

حبيب الى النفس القديم وان عفا
تسامره أو تشتكي أو تنادم

ظل غريبا ومات غريبا ، اذا حسبنا الغربة عن دمشق ، ونحن في طموح الوحدة نعيش ، غربة بالمعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة ، غير ان الزركلي وقد عاش للعروبة عرف كيف يساوي بين اقطارها ، فهو في القاهرة كأنه في دمشق ، وابدا كانت القاهرة هي دمشق ، والغربة فيها ، بالنسبة للعرب تنتفي ، انني ، في هذا الاستهلال لم اصنع سوى ان اشرت الى علامات على هامش الكتاب أما متنه ، ذلك السفر الضخم لحياة ضخمة ، فالذين يدرسون خير الدين الزركلي سيكونون جديرين بأن يظهروا حقيقته أو كما قال زفايج عن الشاعر هولدرن جديرين بأن يعيدوا الينا صورته التي اختفت في ركام النسيان اعواما وعقودا ، كما يختفي تمثال اغريقي في حضن الارض •

ايها الشاعر الذي رحل ••• محال أن يرحل الشعراء ••• انهم المقيمون ونحن الراحلون •

الدكتوره نجاح العطار

وزيرة الثقافة والارشاد القومي

الزركلي حامل لواء الشعر والجهاد

شفيق جبري

أرجع بالحاضر الى الماضي ، وبيني وبين هذا الماضي ستون عاما ، وما لجأت الى تذكر هذه السنين الطويلة الا لأبين أول صلة بيني وبين أخي المرحوم خير الدين الزركلي ، كنت في مقتبل العمر ، لا أعرف في دمشق الا قليلا من الاصدقاء جمعتنا بأيام الدراسة لقد توفي بدمشق تاجر من أعظم التجار وأكرمهم ، وكانت بينه وبين المرحوم والدي صداقة متينة ، فرثيته في قصيدة ، وكانت أول شعر قلته ، جاء فيها هذا البيت :

والدهر يعثر بالكرام وقلما عثرت صروف الدهر بالاوغاد

اطلع على القصيدة الشهيد سعد الدين المؤيد العظم رفيقي في المدرسة وعلق بذهنه البيت الذي ذكرته، فرواه للاستاذ خير الدين ، فقال له خير الدين ، لا يجوز لي أن لا أعرف صاحب هذا البيت ، فتم الاجتماع بيننا واستحكمت أواصر الصداقة ، ولماذا لا أقول أواصر الاخوة الصافية النقية ٠

لم أحي هذه الذكرى في فاتحة كلامي عبثا ، لقد قصدت أمرا غير الصداقة وغير الاخوة ، قصدت الاشارة الى اهتمام خير الدين بالشعر ، فقد خلق للشعر وخلق الشعر له ، خلقه الله شاعرا من أول حياته ، ففي قامته المديدة ، وفي عينيه الناطقتين وفي عذوبة حديثه اذا حدث وفي شدة غضبه اذا غضب وفي حلاوة رضاه اذا رضي وفي لطائف نكته اذا مزح ، في هذا كله برهان قاطع على امتزاج الشعر بنفسه ، فهو شاعر ملء روحه وملء قلبه حمل لواء الشعر في الشام في وقت كان عدد الشعراء فيه محدودا ، اذكر منهم اثنين من المشايخ هم أحدهما المحسنات اللفظية لا غير ، وقد دفع حب خير الدين للشعر الى تكريمه كبار الشعراء اذا جاؤوا دمشق ، فقد لجأ شاعر العراق الشيخ رضا الشبيبي الى دمشق في ايام حكومتها العربية هربا من الاحتلال للعراق ، فدعاه خير الدين الى سهرة في داره في حي السمانة وكنا اربعة ، أنشد بعضنا شيئا من شعره في السهرة وما كان الشعر في ذلك الوقت الا اعرابا عن النزعات الوطنية ٠

لست ارمي الى وصف شعر خير الدين ومكانته فان مثل هذا الوصف يستلزم ـ صفحات غير قليلة وحسبي أن انوه باصالة شعره ٠ ، ومما يؤكد هذه الاصالة ميله الى شعرائنا الكبار في الماضي امثال المتنبي والبحتري وغيرهما فقد احب المغفور له الملك فيصل بعد أن نصب ملكا على الشام أن يجعل للادب منزلة رفيعة وأن يجعل للادباء مقاما عاليا في الدولة ، فألفت جمعية أدبية كنا فيها خمسة أو ستة على ما اذكر منهم خير الدين والشبيبي ويوسف حيدر وغيرهم ، كنا نجتمع مرة في الاسبوع وعلى كل واحد

منا أن يختار بضعة أبيات لشعراء كبار وأن ينشدها في الاجتماع ، لقد اخترت أبياتا من شعر البحتري وهذه هي :

صاحب الحملة التي تنقض	الزحف بحمل الصفوف فوق الصفوف
يتخطى الردى فيدلا صرن	السيف من جانب الخميس الكثيف
في لفيف من المنايا يمزقن	غداة الهيجاء كل لفيف
مد ليلا على الكماة فما	يمشون فيه الا بضوء السيوف

فلما أنشدت هذه الابيات استحسنها الاخوان كل الاستحسان وقال خير الدين : لقد طالعت شعر البحتري باجمعه فكيف فاتتني هذه الابيات العظيمة وأنشد أبياتا من يائية المتنبي المشهورة ، من هذه الذكرى البعيدة نستدل على ذوق خير الدين في الشعر فحسبه امتزاج روحه بروح البحتري والمتنبي لتجتمع له أصالة الشعر ومحاسن الذوق وحلاوة الصور وسهولة الالفاظ وعذوبتها ، لقد تجلت هذه الفضائل كلها في شعره ، تجلت في قصائده الوطنية التي فاضت محبة لدياره وشغفا بوطنه وثورة على المعتدين عليه وتحريضا على اخراجهم من ديارنا ٠

ليت شبابنا في هذا اليوم خلقوا من ستين عاما ، ليتهم سمعوا خير الدين وعلى رأسه كوفيته وعقاله ينشد قصائده في قاعة من القاعات وكأنه شاعر من شعراء بني العباس ، ليتهم سمعوه وهو يتغنى بثورة العرب الكبرى ويقول :

أصغيت والليل تطويني دجنته	والبرق ينشر ما تطوي الدجنات
وللرعود من الآفاق زمزمة	وأعين الليل من سهد كليلات
صاح الدعاة لاخذ الثار فانتفضت	من الغمود السيوف الهاشميات

فاذا كان شبابنا خلقوا بعد تلك الايام الحلوة ولم يعرفوا خير الدين ولم يسمعوه في انشاد شعره الثائر فنحمد الله تعالى على أنه رزق بلادنا رجالا يعترفون بفضله في الادب والجهاد فلا شيء أصعب على الامة من أن يتنكر رجالها للمخلصين من المجاهدين في سبيلها فأحمد الله مرة ثانية على أن في هذه الامة من لم يتنكر لابنها البار ٠

اني لا اريد أن أطيل الكلام على شعر خير الدين حتى لا يفوتني الكلام على بعض ـ خصائصه ونزعاته الوطنية ولكني لا ارى بدا من الالماح في هذا المقام الى سرعة خاطره وسرعة نظمه للشعر فلا يصعب عليه قول الشعر في اية ساعة من الساعات وفي اي حال من الاحوال يدعو الشعر فيجيئه في اقرب من لمح البصر ، أذكر أني كنت في مكة المكرمة وذلك على ما ظن في عيد الاضحى سنة ١٩٣٥ ، كان المغفور له الملك عبد العزيز ابن سعود يطوف حول الكعبة فتصدى له رجل من اليمن ليغتاله فرمى ابنه سعود بنفسه على ابيه وحماه ، فلما نجا من الموت احتفلوا بنجاته في العيد وهيأ خير الدين قصيدته في يوم أو يومين ، قال في مطلعها :

ليست خناجر في أيدي الالى احترموا
تلكم مفاتيح غمدان بها قدموا

وعلى الرغم من قوة خير الدين في الشعر ومن احاطته بدقائقه كان لا يتذمم من رأي يبدي له في بعض شعره اذا كان في هذا الرأي ما يعترف بصحته ، فقد جمعنا في يوم من الايام مجلس فكان خير الدين يروي بعض أبيات من شعره ، في جملتها هذا البيت :

اذا ضل الهداة فليس بدعا
ضلال السالكين بلا دليل

فقال له جليس من الجنساء لو قلت يا خير الدين :

اذا ضل الدليل فليس بدعا
ضلال السالكين بلا دليل

لكان قولك أوقع ، وكانت نغمة الموسيقى أعذب ، فقبل خير الدين رحمه الله هذا الرأي وحذف لفظة الهداة واستعمل الدليل ، وفي هذا برهان على اعترافه بموسيقى الشعر ، ولماذا لا أقول : على روحه الشعرية ٠

ما أظن ان بي حاجة الى الافاضة في الكلام على نزعات شعره الوطنية فكم بكى في هذا الشعر على اقتسام ربوع الشام من قبل الحلفاء وكم اشار الى نقضهم للعهود والمواثيق التي قطعوها على انفسهم في تاييد استقلال البلاد ووحدتها وكم مجد الذين دفعوا الغيم عنها وسعوا في نعمة حريتها ٠

لم ار في خلال صحبتي لخير الدين الا انسجاما كاملا بين شعره الوطني وبين مقالاته الوطنية فقد تعارفنا سنة ١٩١٧ واستحكمت بيننا اواصر الصداقة وظهر لي صفاء نيته وقوة اخلاصه حتى كان في جريدته (المفيد) في أيام الحكومة العربية في دمشق يطلب الي في بعض الاحيان ان اشرف عليها اذا غاب قليلا ، كانت المفيد معروفة

بالصلابة وبالشدة في الحرص على استقلال البلاد وحريتها فكما جاهد خير الدين بشعره فكذلك جاهد بأدبه، بمقالاته، وعلى ذكر الادب لا أرى مندوحة لي عن اهتدائه الى بواطن هذا الادب، كنا نطالع شيئا من كتاب (الاغاني) فلم يقتصر على ما تضمنه هذا الكتاب العظيم من كنوز الادب وانما كان يفطن الى ما تشتمل عليه بعض الاخبار من الدليل على حرية الابناء مع الاباء وعلى ما تقتضيه اداب الدخول على الخلفاء وغير ذلك من الذي اصطلحنا على ان نسميه في هذا العصر : المراسم، ولم يزل خير الدين في أيام الحكومة العربية التي مرت وكأنها حلم من الاحلام، لم يزل يوقظ روح الوطنية بشعره مرة وبجريدته مرة حتى كتب الله لهذه البلاد ما كتب فذهب استقلالها ودخل المستعمرون ديار الشام وتفرق رجالات الوطنية في البلاد وفي جملتهم خير الدين رحمه الله : يحن الى دمشق في قصائده ويبكي على خروجه منها ومن فرط حبه لدمشق ولبعض منتزهاتها أحب عصافيرها وبث هذه العصافير شكواه وحنينه :

عصفورة النيربين غني واروي حديث الأنين عني

أنا المعني وما المعنى غير حنين أذاب مني

شغاف قلبي وحسن ظني ؟

لم يقتصر خير الدين على الجهاد في سبيل حرية بلاده في دمشق وحدها وانما امتدت آفاق جهاده بعد خروجه منها، فقد أقام بالقدس وبالقاهرة اني لا أرجي الى تتبع أثار حياته بعد خروجه من دمشق وحسبي الاشارة الى تنقله في طائفة من بلاد العرب بين أمرائها وملوكها، ففي أي بلد استوثق من روح الوطنية في رجالها مال اليه فما انفك طرفة عين عن الولع بهذه الوطنية والتغني بها .

على أن جهاده في سبيل الحريه والاستقلال لم يصرفه عن العناية بالادب وحسبه كتابة : (الاعلام) الخالد على وجه الدهر الذي اصبح في ايامنا مرجعا من أعظم المراجع، يجد فيه المطالع ما يهمه من معرفة ما يتعلق بخلاصة حياة رجالنا في الماضي وبعض الحاضر في السياسة والادب والعلم وغير ذلك، لقد انفق خير الدين عمره كله في تأليف هذا الكتاب حتى تم له ما أراد .

ان عظمة خير الدين تنحصر في ثلاثة أمور :
في شعره الذي حمل لواءه
في وطنيته التي جاهد في سبيلها
في أدبه الذي استغرق سنين غير قليلة من عمره

فاذا بكيناه فاني أرى أن هذا البكاء قليل، اني أرى انا لم نعطه كل ما يستحق ولا يحسن بي ان اختم كلمتي دون تقديري لوفائه ودون تقديره لعظماء رجالنا : فقد سأله مرة أحد رجالات، الشام قال له : أتقرأ مقالات كرد علي وكان بين السائل وبين الاستاذ الرئيس كرد علي شيء من الجفاء فقال له خير الدين : اعاكس السؤال فاني لا أمر بمقالة من مقالات كرد علي دون أن أقرأها، قال خير الدين قوله هذا وبينه وبين الاستاذ كرد علي تباعد في الآراء السياسية من ايام الانتداب الفرنسي، ولكنه على الرغم من هذا التباعد ما أراد الا أن يكون نزيها في حكمه، وفيا للعلم .

لقد كان الوفاء خلقا من أخلاقه فاذا رثى شهداء العرب الذين قتلهم الترك وقال في مطلع قصيدته :

نعي نادب العرب شبانها

فجدد بالنعي أحزانها

اذا رثاهم وكان في رثائه نزعة وطنية عامة فقد رثي بعض اخوانه وكان في رثائه لهم نزعة وفاء خاصة ،ومن هؤلاء الاخوان سليم الجندي والاستاذ محمد البزم ولا أزال أذكر مطلع قصيدته فيهما :

لمن خلفتما الميدان والميدان للفرسان

وفي هذا كله دليل على أن خير الدين لم ينس دمشق بعد خروجه منها ولم ينس قدماء اخوانه فيها، فما اشد حنينه الى وطنه وما أرق هذا الحنين ؟

رحم الله أخي خير الدين أوسع رحمة، ومما يدخل العزاء على قلبي اني لم أحرم رؤيته في آخر أيامه فقد جاء بلودان في الصيف الماضي ومعه ابن عمه صديقي الاستاذ سليم الزركلي ولما وقع نظر الاستاذ سليم علي في مقهى بلودان وقفت السيارة وخير الدين الى جنب السائق، لا أنسى في حياتي هذه الدقيقة ولا اذكر اني عانقت صديقا من أصدقائي عناقي لخير الدين ولا قبلته تقبيلي اياه حتى كاد الدمع ينحدر على خدي لما ظهر على خير الدين من آثار الضعف .

لا يسعني في خاتمة كلمتي الا البكاء على خير الدين والا الشكر الجزيل للذين فكروا في هذا الاحتفال ولم ينسوا شعره وجهاده وقد حمل لواءهما كل حياته حتى خلده هذا الشعر وهذا الجهاد ؟

« شفيق جبري »

القنديل الأخير ★

بين الشعر والتاريخ

د. شاكر مصطفى

هو ابن دمشق ، نشأ فيها في مطالع هذا القرن ثم غادرها منذ اكثر من نصف قرن ، في رحلة الاغتراب الطويل الطويل ٠٠٠

ومنذ اشهر فقط زارها الزيارة الاخيرة ٠٠٠ طيفا غريبا مر ٠ شيخا هما كبعض اهل الكهف عاد ، يتقرى النيربين والربوة والحارات الرطبة الاولى « والحور في دمر أو حول هامتها » ٠٠٠

(★) في ٢٥ نوفمبر من سنة ١٩٧٦ توفي في القاهرة الشاعر المؤرخ خير الدين ابن محمود بن محمد الزركلي عن ثلاث وثمانين سنة ٠ ولد الرجل في ٢٥ يونية سنة ١٨٩٣ في بيروت من ابوين دمشقيين ٠ ونشأ في دمشق وتعلم في مدارسها الاهلية وعلى علمائها ٠ واولع بكتب الادب وقول الشعر واصدر مجلة الاصمعي ثم درس في الكلية العلمانية (لا ييك) في بيروت وصار مدرسا فيها وعاد في اوائل الحرب العالمية الاولى الى دمشق فلما انتهت الحرب اصدر جريدة لسان العرب سنة ١٩١٨ ثم جريدة المفيد ٠

واثر احتلال الفرنسيين لدمشق (٢٥ يونيو سنة ١٩٢٠) هرب الى فلسطين ثم الى القاهرة ثم مكة وصدر حكم الفرنسيين باعدامه بينما كان قد دخل في خدمة الملك حسين بن علي ثم انتقل لمساعدة ابنه الامير عبد الله في شرقي الاردن مفتشا عاما للمعارف ورئيسا لديوان رئاسة الحكومة (١٩٢١ ـ ١٩٢٣)ثم ما لبث ان غادر عمان الى القاهرة فافتتح المطبعة العربية بها ٠٠٠

ومع ان الفرنسيين كانوا قد عفوا عنه الا انهم عادوا بعد الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ فحكموا عليه غيابيا بالاعدام مرة ثانية ٠٠٠ ولما كانت مملكة الحجاز الهاشمية قد سقطت خلال ذلك فقد التحق الزركلي بالملك عبد العزيز آل سعود وظل من رعايا المملكة السعودية حتى آخر ايامه ٠

اصدر الزركلي سنة ١٩٣٠ جريدة الحياة في القدس ثم جريدة يافا ٠ ثم عمل مستشارا للمفوضية السعودية بمصر وكان مندوب المملكة عند انشاء الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ كما استلم ادارة وزارة الخارجية السعودية سنة ٩٤٦ ثم سمي مندوبا دائما للسعودية في الجامعة العربية سنة ١٩٥١ ثم سفيرها لدى المغرب سنة ١٩٥٧ فلما طلب التقاعد سنة ١٩٦٣ ابقي سفيرا فخريا حتى وفاته ٠ له من الكتب :

ـ ما رأيت وما سمعت (ط ٣ القاهرة سنة ١٩٢٣) ٠

زجاجتان من ماء بقين اعادتاه الى دمشق مرتع صباه وهو على ابواب القبر ، وصلتاه فجأة الى بيروت ، حيث كان يقيم وعويل الصواريخ فيها يجرح الافق ، والرصاص زغردة جهنم ، وجنون الدم يجوب الشوارع فقال لسائقه : الى دمشق يا بني ... وعلى الفور !

ولكن .. ما عرف احدا في دمشق ولا عرفه ــ سوى بعض الاهل ــ احد . ما تغامزت عليه عين وعين ولا أشارت اليه اصبع في الزحام. لعلها وحدها الجدران العتيقة في باب البريد ، وقديم الشمشير في الاواوين الدمشقية المنقوشة وبعض الازقة المعتمة تتكىء شبابيكها من جانب على جانب ، وبعض جذور الدلب الدهري تستدير كدوائر الارض على ضفاف بردى ... لعل هذه وحدها عرفته فقالت : انه الزركلي ! وانداح امامها حلم عتيق عمره اليوم اكثر من خمسين سنة . حلم راود دمشق ذات صباح من آذار (مارس) سنة ١٩٢٠ ان تكون عاصمة الدنيا العربية من جديد . فهيأت التاج والصولجان وعقدت البيعة .. ثم ما لبث الحلم ان اختنق في اللفائف ...

من ذا الذي شهد ذلك الحلم ؟ جمهرتهم الآن اقمار مكسرة وبقايا سيوف توزعتها حفر الارض بين وادي النيل والرافدين وام القرى ... نحن ، اطفال ما بين الحربين ادركنا الاصداء البعيدة منه . فتات الحلم وشظايا قناديله السحرية كانت كنوزنا الخبيئة. في السركنا نتداول زغاريده . اسراره . ملاحمه . قصصه . آماله واغاني الثوار فيه وخلال كل اولئك سمعنا اسم الزركلي اول مرة ثم سمعناه الف مرة ومرة ، ثم حفظناه الف الف مرة .

صناجة الحلم وصوته الصداح كان . ولقد كبر فيناوكبر حتى صار احد العمالقة . صار اسطورة الثائرين . شعره كان غذاءنا اليومي . كان خبز السوق الوطنية ، وعلى هذا الخبز فتحنا الاعين وعرفنا الف باء الجهاد القومي . ديوانه الممنوع ، حين وقع لي الديوان الممنوع ، نقلته بخطي في ليلة واحدة وحفظته في ليال ... اترابي كانوا يحسدون ملكي لقوافيه وكانوا ينشدون ويستعيدون قوله في الفاجعة ، فاجعة الاحتلال الفرنسي للشام :

الله للحدثان كيف تكيد
بردى يغيض وقاسيون يميد

لهفي على وطن يجوس خلاله
شذاذ آفاق شراذم سود

أبرابر السنغال تسلب امتي
وطني ولا يتصدع الجلمود ؟
زحفت تذود عن الديار ومالها

من قوة .. فعجبت كيف تذود ؟
ولقد شهدت جموعها وثابة

لو كان يدفع بالصدور حديد
والشعب أن رام الحياة فما له
عن درك اسباب الحياة محيد . (١)

ــ عامان في عمان (ط القاهرة سنة ١٩٢٥)

ــ شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز (٤ اجزاء ط . بيروت سنة ١٩٧٠) .

ــ ديوان خير الدين الزركلي (ط . القاهرة ١٩٢٠) .

ــ الوجيز في عهد عبد العزيز (موجز الكتاب السابق) .

واما كتابه الضخم فهو : الاعلام في عشر مجلدات وقد الحق به في طبعته الثالثة سنة ١٩٦٩ في بيروت مجلدين : المستدرك الاول والمستدرك الثاني عدا مجلد للخطوط والصور .

ــ ثم كتب له ملحقا لم يطبع بعد بعنوان : الاعلام بمن ليس في الاعلام .

وله كذلك مما لم يطبع :

ــ صفحة مجهولة من تاريخ سورية في العهدالفيصلي

ــ مجموعة أبحاث في الادب والتاريخ

ــ ديوان شعر من اربع مجلدات .

وليست هذه الصفحات بدراسة لشعره أو لمؤلفاته التاريخية وانما هي محاولة لوضع نوع من السيرة الذاتية له من خلال شعره في الفترة القلقة المحدودة من حياته .

(١) ديوان خير الدين الزركلي (ط . القاهرة ١٩٢٥ ص ٤٢ ــ ص ٤٥) .

واترابي ، كانوا يغذون حقدهم على المستعمرين ويثيرونه بكلمات الزركلي يوم أحرق الفرنسيون دمشق بالقنابل :

الاهل اهلي والديار دياري
وشعار وادي النيربين شعاري
ما كان من الم بجلق نازل
واري الزناد فزنده بي واري
ان الدم المهراق في جنباتها
لدمي وان شفارها لشفاري
دمعي لما منيت به جار هنا
ودمي هناك على ثراها جار
النار محدقة بجلق بعدما
تركت (حماة) على شفير هار
تنساب في الاحياء مسرعة الخطى
تاتي على الاطمار والاعمار
فاذا المنازل وهي شامخة الذرى
منهار اطلال على منهار

على هذا الخبز عشنا . غنينا عربدنا بين جدران عنبر (٣) وتظاهرنا في الشوارع ضربنا الاحجار والمفرقعات ، ألهبت ظهورنا سياط النظارة ، وتنفسنا نتن القواويش (٤) القديم .. كل ذلك ووجه الفرنسي اصفر اللؤم كالليمون المهترىء وعين السنغالي درزة حمراء . ودان اسم الزركلي خلال ذلك كله صخرة الغضب والرجوم . ألم يحكمه الفرنسيون بالاعدام مرتين ؟ ألم يكن يعيش في المنفى ؟ اليس يرضعنا بالكلمة الدافئة المبدعة الفكر القومي ؟ اليس يبكي ويبكينا بانشاده :

العين بعد فراقها الوطنا
لا ساكنا الفت ولا سكنا
كانت ترى في كل سانحة
حسنا واضحت لا ترى حسنا
والقلب لولا انة صعدت
انكرته وشككت فيه انا
ليت الذين احبهم علموا
وهم هنالك ما لقيت هنا
ما كنت احسبني مفارقهم
حتى تفارق روحي البدنا
يا موطنا عبث الزمان به
من ذا الذي اغرى بك الزمنا .
يا طائرا غنى على غصن
والنيل يروي ذلك الغصنا
اذكرتني ما لست ناسيه
ولرب ذكرى جددت حزنا
ان الغريب معذب ابدا
ان حل لم ينعم وان ظعنا
لو مثلوا لي موطني وثنا
لهممت أعبد ذلك الوثنا(٥)

وبانشاده في دمشق :

انا في هواك كما يشاء هواك لي
كيف بحبك يا دمشق ودود
ولقد هجرتك حين حاق بك الاذى
ما للأباة على الهوان قعود
اقصيت عنك ولو ملكت اعنتي
لم تنبسط بيني وبينك بيد !!

وفي غنائيته المعروفة :

عصفورة النيربين غني
وارو حديث الانين عني
انا المعنى وما المعنى سوى حديث اذاب مني
شفاف قلبي وحسن ظني

عصفورة النيربين نوحي يخفف النوح من جروحي
لم يبق لي الهم غير روحي ما القلب ما الجسم بالصحيح
ما في عرق بطمئن

ان أهو لا أهو غير آلي دمي فداء لهم ومالي
احسنت ظني بهم فما لي خابت اماني في الرجال
ليت الاماني بالتمني

---

(٣) نشرها اثر ضرب دمشق ١٩٢٥ (٣) عنبر اسم المدرسة الثانوية الوحيدة التي كانت في سوريا بين الحربين .
(٤) النظارة هو اسم مكان التوقيف في الشرطة . والقاووش : اسم غرف السجن في قلعة دمشق ، واما كلمة سنغالي هنا فتعني الجندي الفرنسي لان الفرنسيين كانوا يستخدمون الفرق التي يجدونها من السنغال كجيش احتلال ويقمعون به الحركات الوطنية .
(٥) الديوان ص ٨٨٢ ـ ص ٨٣ .

وادارت الايام ٠٠٠وتبددت حتى شظايا الحلم مع الايام٠ حالت ذكرى في أعماق عيون الفتيان الذين أفاقوا فجأة منذ شهرين على نعي الزركلي ٠٠ فاذا بالنعي ينفض الحلم من جديد : زغاريده ومآسيه وعمالقه الشعري الذي غاب ٠٠

وعمر الزركلي عندي ليس اكثر من تلك الايام كان فيها العملاق ٠ عمره الحقيقي كان سبع سنوات فقط وان عمر ثلاثا وثمانين سنة من اعمار الناس ٠ ما بين سنة ١٩١٨ ــ ١٩٢٥ فقط عاش خير الدين الزركلي ٠ تلم ٠ صرخ ٠ بكى ٠ جاع ٠ لهث ٠ مضغ اليأس ٠ احرق الشرايين ٠ ضرب بقدمه قوائم العروش ٠ تقدم المواكب الثائرة ٠ زغرد للشهداء الزغاريد ٠٠ ثم غاب في الزحام ! ! فضولا كان ما سبقها منذ ١٨٩٣ ، فضولا كان ما لحقها حتى ١٩٧٦ ٠

في تلك السنوات كان لمصر شوقيها وحافظها والمطران واسماعيل صبري ، وكان للبنان شبلي الملاط وبشارة الخوري ، وكان لبغداد الرصافي والزهاوي وعبد المحسن الكاظمي وكان لمكة فؤاد الخطيب فأطلع الافق الدمشقي شاعرا للشام : الزركلي ٠

بكل ضجة الفرسان العمالقة دخل الساحة على فرس:

مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطه السيل من عل !

وبغنائية الشعر الذي ترفده كوكبة من شياطين عبقر غنى ٠٠٠ حسب الناس انه وقع على النار المقدسة التي يشرب منها المخلدون ٠٠ ولكنه ما لبث ان توارى شيئا فشيئا الى الظل ٠ لبس الاقنعة السبعة وغاب وراء البحار السبعة ٠٠ اليس له من سر ؟ بلى كان للزركلي سره المدمر ٠ أأحدثكم بالسر ؟ وبالفجيعة المثلثة التي دمرت الرجل ؟ ٠

هل قرأتم ديوانه القديم ذا الخمسين ورقة ؟ هناك حكى كل شيء لمن ألقى السمع وهو شهيد ٠٠٠

لا ! لا ما في الامر قصة حب ٠ ولا امرأة توسوس بسحر هاروت لذلك القلب الشاب وتجره بخيط العطر : ما أعرف للرجل قطعة غزل ٠والغزل خبز الشعراء ولا زمة الغناء والقيثارة ٠ لا أعرف له شفة ألهبته بالرحيق الارجواني أو عينا أغرق في مينائها الليلكي المجنون أشرعته ٠ اختفاء حواء من ديوان شبابه عجب ٠ طيفها غائب عن شعره الذي أعرف في تلك الفترة ولعل غيابه هو بعض سر الرجل وبعض الفجيعة ٠٠٠

القصة قصة حب آخر ٠ قصة مثل عليا معبودة ضربها الزلزال فاذا هي حطام من الحطام ٠ وكهنة كبار عليهم الارجوان السابغ هتكت عنهم الاستار فاذا هم أقزام أو بعض أقزام وهيكل ممرد من الامال ، انهار بما فيه من معبود وأنصاب وكهنة وقناديل في التراب ٠٠٠ وكان الزركلي بعض هذه القناديل المنهارة ٠ وانكسر شيء ما في القنديل مع الزلزال والانهيارات فخبا النور الذي يمنحه الالق السحري ٠٠٠ وبدأت مرحلة الهرب الطويل ٠٠٠

أول الحكاية سنة ١٩١٨ ٠ في الخامسة والعشرين من العمر كان الزركلي يومذاك ٠٠٠ شابا متفتح الضمير، سليم الرؤية للحياة ، راعف القلب بآلام المعدمين(١) ومآسي الحرب والجوع :

أيها الموسرون حسبكم اليسر
فهلا مننتم باليسير

رضي الدهر عنكم فحباكم
سعة العيش والتساق الزئير

رب قلب أجاعه العدم لو أشبع
لاقتاد شعبه بالزئير

ونفوس تأبى مع الضيم شرب الماء
ذلت بالفقر والتقتير

أيها الناس ما لبعضكم ضن
ببعض المكنوز والموروث

أفضل المال ما كفاكم ووقاكم
خضوعا لفاجر أو خبيث

خيركم مطعم الجياع ومعطي
معتفيه ومسعف المستغيث !

(١) انظر مقطوعاته في الديوان : صاموا (ص ٤٠) ، المحمل (ص ١١) ، أمام الضريح (ص ٦٢) ٠

وكان ثائرا على رجال الدين الزائفين • هازئا ممن يتبركون بالمحمل أو يعقدون الرتائم على أضرحة الاولياء (١) ••• ولقد بكى شهداء العرب :

نعى نـــادب العرب شبانهـا
فجـدد بـالنعـي أحزانهــا

فجائع هن حـديث القلـوب
وهيهات تستطيع سلوانهـا
أبى السيف الا انتقاماً لها
وخاف عـلى الضيم خسرانهـا

أثار بني هاشم في الحجـاز
وأنطق في الترب حسـانهـا
كتائب هبـت تلبي الدعـاة
تطوى القفـار وكثبـانهـا
هو الثار أدركـه الثائرون
أشجى « فروقـا » وسلطانهـا

وغنى للثورة العربية القادمة من مكـة والخنجر التركي في الاعناق :

عتا أحفـاد جنكيز فسـاقـوا
سلائـل يعرب سوق العبيـد

فكم حملوا على الأعواد ظلمـا
وكم ساموا المهانـة مـن عميد

الى أم القرى عـدت المذاكي
وفي أم القرى خفق البنود

فلما خفق اللواء العربي على مشارف الشـام رقص قلب الشاعر للحدث المذهل • ألف أمل غوى انداح أمامه ، وكل أمل أعرض من الافق • الفرح أخذ يسيـل في الدروب،ألم يستقل العرب ؟ اذن فالدنيا مواسم للمواعيد الابكار • وبرز حزب الاستقلال العربي فاذا الزركلي في طليعة أعضائه • التهب كالف سهم نـاري • حنجرة معدنية الرنين صار ••• لقد وجد لحياتـه « قضية » • اكتشف فلكه وقدره !

لكن كانت الفترة فترة المخاض الكبير : عصر كان ينتهي بالنسبة للعرب ويبدأ عصر • المصائر كانت ترسم ما بين شد من القوى وجذب • وبدل الفرح أخـذت الحيرة العمياء تركض في الازقة والناس كسكارى وما هم بسكارى ، كانوا وراء البحث عن مستقر ! موكب الحياة كله كان نجوما تتفجر • تكوين جديد كان يصاغ وراء البحار للناس ، أما قـادة الناس فكانوا يعيشون براءة الانسان قبل السقوط من جنة عدن ! كـل القطوف في تصورهم دانية • ايديولوجية مبسطة ساذجة الايقاع ، كانت تأخذ عليهم الابعاد • انه عصر الرومانتيكيـة السياسية • لم يكن الشعر وحده هو الرومانتيكي ولكـن كانت كذلك السياسة • ووطنية الوطنيين •••

وهل كان الزركلي الا من « غزية » ؟ كانت السياسة هي الهواء الذي يتنفس في تلك الايام ، وكان يتصور أن الحق لا بد منتصر بحكم القانون الطبيعي كما تنبت سنابل الربيع ويهب الريح • كان يؤمـن أن الزعمـاء أبرياء اطهار • رهبان قضية ؟ ••• لم يكن يتصور امكـان الفشل والامل ملح الرجال ••• ولكن ما كاد ينقـل الخطوات الاولى حتى استراب الطريـق فرفع الاعين الى الرب •

أتح لي يا رب السموات نظرة
الى لوحك المحفوظ في الملأ الأعلى
لعلي ألفى في خـلال سطوره
لما عقدته الحادثـات بنا حـلا
سنغدو حديث القوم يأتون بعدنا
يقولون: عانى الناس فيما مضى هولا

ودهمه القلق بعد ذلك خطوة خطوة ••• والقلق فارة الشيطان العظمى • كان يقرؤه في عيون الاطفـال وفحيح الجياع وشحوب الاخبار • وعلى مدى سنتين كان القلق يتصاعد في صدره كالمد في الخلجان المغلقة ، ولقـد روى حكاية هذا القلق مدا بعد مد :

الخـافقـان عراهمـا الهـم
قلبي وقلبـك أيهـا اليـم
كم ثورة لك يا خضم بنـا
ريعت لها أفلاكـك الشم

(١) انظر مقطوعاته في الديوان : صاموا ، المحمل ، أمام الضريح •

ويثور بـي قلـب يمزقــه
شعــب تفـرق ليسـن ينلـم

فــاذا دعــوت فدعوتي عجـب
ان الرجـــال بـأمتـــي صـم

غلـب الونى فعـلام انـذرهم
ما حيلتي والجــو مـدهـم

يا يم خفف عنـك ليس لنـا
الا العنـاء وهمنـا جـــم

ثم يقول بعد ذلـك اثر زيارة اللجنة الامريكية (كرين ـ كينغ) واخفاء تقريرها سنة ١٩١٩ :

يا راقدين على الهوان تأهبـوا
وتجلببوا الادراع والاكفـانـا

هذي بلادكم تبـاح ودوركـم
تجتاح فابغوا غيرها أوطـانـا

من خال أن المجد يدرك هينا
فلينتظر بعد الهوان هوانـــا

ثم قال بعدها :

فيم الونى وديار الشام تقتسم
اينالعهود التي لم ترع والذمم ؟

هل صح ما قيلمن وعد ومن عدة
وقد رأيت حقوق العرب تهتضم

ما بال بغداد لم تنبث بها شفة
وما لبيروت لـم يخفق بها علـم

ويلمها نكبات كلهـا ظلـم
وقد تنير صراط السالك الظلم

نسام خسفا ونقصى عن محجتنا
ويوثق الفم حتى تخفت الكلم

نسجوا علىالضيموالاطماع حائمة
ونكظم الغيظ والاكباد تضطرم

ويصيبه الاذى ويستبد به الالم فيصرخ بعد ذلـك تفجعا وقلقا :

يجني وأشكر في الهوى يـــده
وطن شقيت بـــه لاسعده ...

آليت لا باليت بـــي ألمـــا
وبه دم حتى أضمــــــده

يومي لـــه وغدي لـــه هبة
وعساي أحمـد في غدي غـــده

متفجع متوجـــع قلـــق
يذكـــي تنهـده توقده

يشكو وما يشكو سوى وطـــن
لـــم يحمل الاخلاص مقوده ..

ويـــح السياسة في تقلبهـــا
يسلو الحليم بهـــا تجلــــده

جنت السياسة وهي خالبـــة
فأضلت الظمآن مـــورده

كـم صائح وطني ! حسبت بـه
كشـاف غمتـــه ومنجـــده

دارت بـــه الايام دورتهـــا
فارتعت حـين رأيت مشهـــده

أبصرته مستهدفـــا وطنـي
والسهم بـــين يدبـــه سـدده

لـم يهو الا سلب نعمتــــه
ورواء فضتـه وعسجـــــده

ما كان يطلب غـير مرتبـــة
أو منصب حتـــى تقلـــده

ثم يكشف الستر عن المأساة السياسية بكل عريهـا ومباذلهـــا :

أية نفس من أسى ناجيـــه
والناس في حالكـة داجيــــه

هذا ينادي : منصبي منصبـــــي
وذاك : تاجي ويحكـــم تاجيـه

وانما الفوز لشعب صحـــــا
والخسر حظ الامـــة الساجيـه

ويدركه الاسى العنيف فيكتب « نشيده اليائس » :

عصفورة النيربـــين غنـــي
وارو حديث الانـــين عنـــي

ثم يكتب بعد ذلك ، وبينه وبين فاجعة ميسلون المقبلة ثلاثة أسابيع منددا بالمسرح السياسي ومن عليـه متوقعا التشرد القريب :

وطن تزاحمت الخطوب ببابــه
وجفاه من عقدت لهـم آمالــه

الحر حلف شقائـه وبكائـــه
وأخو الضلالة لا يعاف ضلالــه

ثم يكتب قبل ميسلون بأسبوعين نشيد الاخر[1]

لم تبق أيدي الحادثات ولم تذر
فعلام تضحك في سمائك يا قمر ؟

وهو نشيد للبكاء · فيه ظلال من الرومانتيكيـــة السوداوية ومن « عبرات » المنفلوطي ومن توقعات اليأس:

أرعاك مبتئس شكا ألـم الطوى
ومروع ضل السبيـل وما غـوى

وقسوت ··هل قدت ضلوعك من حجر؟
لم تحتجب ، لم ترث ، لم تقف يا قمـر

هكذا ، وكما يتصاعد الايقاع في سمفونية مأسوية كان فيض المشاعر اليائسة يتصاعد في صدر الزركلي ، وعلى لهاته ، في انتظار الفجيعة التي وقعت في النهاية··· وكانت معركة ميسلون (السبت ٢٤ تموز/يوليو سنـــة ١٩٢٠) ···

أول تعليق له على ذلك :

أنا لا أشكو ونى في أمتـــي
وبقومي كان ادلال الفخـــور

انما توشك أن تبكينـــــي
غفلة القادة فينـا والصـدور

ويضيف « رحماك اللهم ربي ! ورأفتك بأمـــة أسلمت زمامها المقادير الى زعماء خبطوا بها خبط عشواء· وقادة كانوا حطاب ليل ونذر ويل · تقحموا بها مجاهل الامور على غير هدى تسيرهم الاهواء والنزعات وتلعب بهم الاغراض والنزغات طالب منصب وعابد درهـــم وعاشق تاج ، لا يبالون من أي الطرق كان لهم ما يبتغون أو يكون ··· »·

« قضى الامر وأراد التردد والضعف وعمي البصيرة أن تتفق وزارة الشام مع ملكها فيصل بن الحسين عـلى تسريح الجيش اجابة لرغبة القائد الفرنسوي الزاحف على ميسلون ··» ·

في اليوم الثاني ، يوم كانت دمشق عاصفة انتقام مقهور تركض في وحل الشوارع محلولة الشعر ، تدافع عن نهديها ببندقية قديمة وبالسكاكين والاحجار تاركة أظافرها في ميسلون ووجهها مثل مجموعة خناجر تصطرع، وبينما كان الزركلي يرقب وصول العيون الزرقاء وجيش السنغال بالطرابيش الحمر الى « الربوة » و « المنشية » جاء من أبلغه أنه رأى اسمه على قائمة يريد بها الفرنسيون الشر ··· فكان في صباح اليوم الثاني في القطار الى حيفا ··· ومنها الى مصر ··· وترا فاجع الرنين هرب·· يحمل في صدره الفجيعة الاولى ·

وقفزت « مكة الى خاطره · أم القرى كانت يومذاك أم الثورة العربية فلم لا يتجه اليها ؟ هناك المرجع الاول، الى النبع ؟ كان يحسبها ويحسب ويحسب ··· كبعض الينابيع الاسطورية ظنها : تعيد ما انتحر من آمالـه الى الشباب··· تنفض كالمردة ما تصدع من هيكل المثل ···

قضى الزركلي لدى الحسين بن علي قرابة ثلاثـة

(1) تاريخها في الديوان ، دمشق ٦ /٨/ ١٩٢٠ · ويبدو أن في الامر خطأ لان الزركلي لم يكن في دمشق في هذا التاريخ بل كان هاربا في الطريق الى مصر فقد دخل الفرنسيون دمشق في ٢٥ /٧/ ١٩٢٠ . ولعل التاريخ الصحيح للقصيدة هو ٦ /٧/ ١٩٢٠ ·

أشهر كانت بدورها فجيعة أخرى ألجمت لسانه فلم يعرف كيف يتحدث عنها . كانت لطمة زعزعته من جديد فسكت. صمت بلع لسانه . صحراء ما فيها نأمة وليس وراءها شيء . بعد ذلك بسنوات ثلاث كشف أوراق الفجيعة . كشف الانهدام الرهيب الذي ضرب قاراته الفكرية ، وجعله لاول مرة يواجه « العدم » الوجودي ويكتشف ضيعة كل شيء ، بعد سنوات ثلاث ، سقط الحجاز بيد الجيش النجدي السعودي وخرج الحسين بن علي الملك من مكة الى المنفى ، فكتب الزركلي القصة الكاملة .

صبر العظيم عـلى العظيم
جبار زمـــز والحطيم

كان يصيح وهو في مكة :

يا ابن بنت النبي أرهقنا العسف
فجرد لـه الحسام الرقيقــا

ان في الشام أمة لا تطيق الضيم
تأبى لها العلى أن تطيقــا

أنذرونا بالموت ما أعذب الموت
اذا كـان للحياة طريقــا

فرقونـا قبائلا وشعـوبـا
وأرى الموت ذلك التفريقا

نحن في حندس من الظلم داج
والظبي تفضح الظلام شروقا

أور في جلق الكئيبة زنـدا
وأقم للطعان في الشام سوقا

ولكن ... « من يجيب ؟ » صاحب مكة ، قال حين سمع الكلام لبيك ولكنـه لم يكن يملك العـدة لتحويل التلبية الى جيش فاتح ... كل ما استطـاع أن يفعله هو تجميع عدة مئات من بدو الحجاز تزعمهم ابنـه الامير عبد الله وسافر بهم الى معان على التخوم بين الحجاز والشام ... وأعلن أنه جاء ينقذ الشام من الاحتلال ... الاحتلال ...

وكما يتعلق الغرقى ببقايـا خشـب السفينة ، تعلقت الآمال بالامير عبد الله .

فما أن عرضت للزركلي فرصة الالتحاق به حتـى انتهزها ولحق به الى عمان .. عسى ولعل !

« عامان في عمان » قضى الزركلي ، تفحمت خلالهما كل آماله واذا قـال في مطالعهما أمـام الامير عبد الله شاكيا قلقه :

الام أجيل الرأي ألتمس امرءا
تطيب بـه نفس اليه ارتياحها

ربات بنفسي أن تذل وما نبت
بي الارض أو ضاقت على فساحها

فقد وصلت به الاسترابة حد التشكك في أمتـه نفسهـا :

ولكنني أحسنت ظنـي بأمـة
تعاصى على أهل الصلاح صلاحها

ولم يخف الوساوس التي تقرض أضلاعه :

لقد أوجس القلب المعذب خيفة
وأقلقـه مكنونهـا وصراحها

وباتت تناجيني وساوس أطلقت
أعنتها الايـام صعب جماحها

ولكن الامير ... لـم تكن هموم الزركلـــي - على الاقل - همومه وهكذا كان كل يوم في عمان يأتيه بيأس جديد .

ومر عامان في عمان على الزركلي تحولا عنوانا لكتاب من مائتي صفحة .

أن الزركلي لم يرو في الكتاب قصة نفسه . روى الاحداث التي رأى فقط وما اكثر ما رأى وروى .

اما تجربته الذاتيـة المرة واما عناقيد الغضـب وعواصف القرف واليأس التي كـانـت تعصف بـه فادخرها للشعر . انهياراته الداخلية هناك قصتهــا الفاجعة . مبكرا شعر بالتناقض بينه وبين ما يجري ومبكرا بدأ الشكوى :

متى ترى تبسم لي يا زمان ؟ الا حنـــان ؟
ابكي ربوعاً لا تطيق الهوان رهـن امتهان
ابكي نفوسا قعـدت بالرجـال عـن النضـال

استحوذت هذه الفكرة على الزركلي منذ مطلـع سنة ١٩٢٢ المصائب القومية كانت تتحـول في صـدره مصائب ذاتية ٠ حرائق في دمه ٠ وازهار الشر التي كانت تنبتبكل مكان ، كانت اظافر وانيابا في لحمه وملاحم حزن وتحديا لعنفوانه ٠ موسم القلق المطلق كان قـد اطل ليتركه بين مد وجزر :

يـا زمـن ازدد عتـوا
ويـا ليـالي اكفهـرى

ويـا نجـوم تـوارى ٠
ويـا عـواصف مـري ٠

عـودنـي مـر صبحـي
ومـر ظهـري وعصـري

انا المشرد عن موطني ومهبط بشري

لا استقـر بمصـر ٠ ٠
حـى اراني بمصر ٠ ٠

ضربـت في الارضـ اطـوي
بيـــدا وآوي القفر !

يقـذف بـي البـر للبحـر
والخضـم لبـر ٠ ٠

كـأنني بـين هـذيـن
بـين مـد وجـزر ٠ ٠

ومع انه كان قد ارتضى المقام بعمان لقربها مـن دمشق الا نه حار بين نوازع الحنـين ونـوازع السفر والهرب ٠٠ حار فقال في اعتراف باك :

لا خير في وطن ينالك ضيمـه
ان المضيـم بـأهلـه لمضيـع

انزح وحسبك بالحنين مواسيا
ترتاح فيه الى السكون الاضلع

لولا الحنين لمـا بكيت أحبـة
كانت تضمهم دمشق وتجمـع

لولا الحنين لما بكيـت بجلـق
قمرا يغيب والف بدر يطلـع

لولا الحنين لما غضبت لامـة
في الشام ذارفة عليها الادمع

لله ٠ للأيام ما صنعت بهـا
ايدي العداة وما ستوشك تصنع

لله للأيام ما ابكـى لهـا
انا ذلـك المتفجع المتوجـع

من مبـك عني ديار صبابتي
واحب ما احببت تلك الاربـع

اني سئمت اقامتي في موطـن
ذل الاعز بـه وعز الاوضـع

ترد القلوب عليه وهي خوافق
وتعود وهي من الاسى تتقطع

لولا منازل كاللحود تغلغلـت
في جوفه ما قيـل الا بلقـع

الوحش ينفر منه حين يروده
والطير تعوزه الحياة فيقلـع

كالسجن الا ان ذلـك ضجعـة
كالقبر الا ان ذلـك اوسع

اليأس الا ان ذلك راحـة
كالموت الا أن ذلـك أجمـع

لولا البقية من امـاني انفس
ملتاعة ٠٠ لتفرق المتجمـع

امل يلوح بها ٠٠ وقد لا تنجلي
عن واضـح سحب ولا تتقشع

فاصبر لهـا ٠٠ فلعل برقا يلمع
وتخل عنها حين يبدو اليلمع[1]

وصبر فلما بدا له السراب في مطالع سنة ١٩٢٣ عاودته النوازع :

عاودتني وساوس الفكـــر
في بلاد القضـــاء والقـــدر

والحت عليه الفجيعة بالهرب فاذا هو الطائر القلق فوق الموج والعاصفة قد كسرت كل الاجنحة :

كـأنـي طائر في افق طـــام
يحوم ولا قرار علـى الطوامي

فمـا ادري ابـا لأردن داري
ام اشتمل الحجاز على خيـامي

وما أدري اما خلفت خـــيرا
ام الخير الذي ارجو امامـي

ويتابع في جواب لعاتب مجهول من اصحابه اخذ عليه الونى الوطني والسلوان :

الام ٠ وما مرامك من مرامي
تعـــاتبني وتكثر من ملامـي

اتزعمني ونيت فما ابـالـي
احي على النهوض ام المقام

متى كان الونى جوب الفيافي
وضربا في الحزون والاكام ؟٠

ودأبـــا لا معـين عليه الا
هوى في النفس أشبه بالغرام ؟

ولي في كل واد حين اشجـي
واطرب ما علمـت من الهيام

اذا انتحب الزمان فلا نتحابى
وان بسم الزمان فلا بتسامي

كانت القوى الاستعمارية قـد اكملت اذ ذاك احتلالها لبلاد الشام والعراق بعد مصر وقد تقاسمت الغنيمة بعد الحرب العظمى في فرساي ثم في لـوزان ، وقسمت البلاد شيفساء سياسة ودول ٠ وحملت السوط المدمي بكل مكان ٠٠٠ وانشوطـة الاعدام ٠ واحتملي يا رقاب الاحرار ! ٠٠

مأساة الزركلي كانت قد تحولت بعد ذلك طوفانا من الملح والفجيعة في لهاته ٠ صخرة سيسيفوس التي كان يحمل تدهورت بين يديه للمرة الثالثة في القـاع ٠٠ كان يأمل ان يضعها في القمة وها هي في الهاوية ٠ القصة الكاملة قصة نفسه وقصة قومه معا ٠٠ والفجيعة السوداء رواها لصاحبه الذي اخذ عليه السلوان والونى فقـال وهو يتابع القوافي :

وتزعمني سلوت مصاب قـوم
هـم كانوا غياث المستضـــام

تجهمت النكوب لهم فبـاتـوا
اسارى في العراق وفي الشام

وقسمت البلاد لهـم فراحـوا
ووحدتهم تصير الى انجـذام

متى يصحون من سكرات هـم
وهم ما بين منتدب وحـامـي

(قلبي) ها هنا وهناك غورو
يقودان البـلاد بـلا زمـام

و (صمويل) له في الطور شأن
(كبرسي كوكس)في دار السلام

هنا وهناك تشتيت ونفي
وتعذيب يـذيب وضرب هام

بكل مدينـة (بستيل) ظلم
وارهاق على غير اجترام ٠٠

اذا حرمت خطى احرار نومي
وعـد بنا الكلام من الحرام

وكـــان لمن تاوه او تشكى
عقاب النفي والموت الزؤام

فقد خسفت باهليها المغانـي
وآذنت الدعـائم بانحطـــام

بعد هذه القصيدة ـ التقرير السياسي ـ كان الزركلي قد قرر طريقه ٠٠ واذا غنى بعد ذلك :

ابتسم الفجر فقل للنائم حسبك نوم
فقم وناج النفس نجوى واجم لهفا ولوم
ما العيش ان تنعم في ظل الاراك
وان ترى العالم وهو لا يراك
لا بد للساكن يوما من حراك
ان الحياة لجهاد وعراك
شر الاماني اماني الحالم
ابتسم الفجر فقل للنائم حسبك نوم
واه لو تطفيء آه الموجع
وقد لظى في كبدي والاضلع
اشكو وما من مدنف يشكو معي
طول سبات الراقدين الهجع
احيي الصباح ميت العزائم
وافترت الاقوام عن مباسم ٠٠ وظل قوم
ابتسم الفجر فقل للنائم ٠٠ حسبك نوم

اذا غنى الزركلي للفجر فانما كان يغني فجره الداخلي ٠٠ لقد قرر الهرب وبدء مرحلة الصمت ٠٠٠ أيضا ٠

وهرب الزركلي الى مصر يحمل في شرايينه فجيعة ٠٠ فارسا مثخن الصدر والجبهة والمهر بالجراح عاد ٠٠٠ سيفا مثلوما بألف وجع ، يلعق جراحه وينظر للاتي ؟٠٠٠ فاذا طلبت اليه كلية البنات الامريكية هناك قصيدة بدأها بقوله :

خذ في حديث غد وما يتلو غدا
متجددا ان الزمان تجددا

واسدل على الماضي الحجاب فانه
زمن تتأثر عقده وتبددا

كان في الواقع يفتش عن غده ، عن آخر غير الامس، عن مصير جديد ويعلل النفس :

صبرا فان لكل أمر منتهى
ان صح أن لكل أمر مبتدا

كان الامس يوجعه ٠ الحديث عنه كان جرحا على العنفوان ، تمزيقا للجراح ٠ فاذا قيل له ان رفاق النضال قد نفوا ، صرخ :

يا قلب أوجعك الحديث معادا
فاخفق كما شاء الاسى وأرادا
يا قلب ان تخفق فهول ما ترى
أو تستقر فما سلست قيادا

في تلك الفترة الباكية غنى لسورية :

وطني طال بكائي ٠
والاسى مما عراكا
أترى تصفو سمائي ٠
وكما أهوى أراكا
أفبعد العز والمنعة
يبغون حماكا
أنا لا أعشق مما
عشق الناس سواكا
فيك محياي ٠
ومثوى أعظمي تحت ثراكا

وكتب رائعته :

العين بعد فراقها الوطنا
لا ساكنا ألفت ولا سكنا

على أن مرحلة السنوات السبع هذه كانت الوجع الاكبر للزركلي ، كانت المرحلة العاصفة ٠٠٠ وحين ختمها الفرنسيون بحكم غيابي عليه بالاعدام ٠٠٠ كان الحكم بالنسبة اليه بطعم التراب ٠٠٠ كان حكما على مرحلته السابقة كلها بالموت ٠ الاستقلال العربي نفسه أضحى حلما افعوانيا أشبه بالكابوس ودون أي معنى ٠ كان الاستعمار في ذلك الوقت ، كالشيطان ، سيد كل المواقف ٠٠٠ أما القضية فانتحرت بالجهاد اليائس ٠
صارت حطام أقمار ٠ وأما الزركلي فكان يلوب حول نفسه يفتش عن طريق ٠٠٠ ويحاسب النفس ويراجع الحساب :

يا نفس علمك الزمان
وما أفادك ما علمت

لولا الغباوة ما أراك
الوهم أنك قد سلمت

الفجيعة المثلثة في دمشق ومكة وعمان أطفأته كسيف من لهب في مستنقع • طردته من الجنـــة • كان شوك المسيرة الفاشلة من الوحشية بحيث نفذ في صـــدره حتى الشغاف• الدم كان ينهمر في داخله كالمطر • زلزال داخلي هدمكل منظومته من المثل ، قتل الربيع ، طمر الينابيع السحرية ، وقلب تماثيل الآلهة • تشرده كان سفرا طويلا الى الحرية استمر سبع سنوات دون جدوى • كان ابحارا وراء المستحيل والجزمة الاستعمـاريـة في الحلـوق • وكالسفينة المثقوبة الشراع خرج من التجربة ••• خرج ليجد نفسه في غربتين ••وما أهمته غربة البلـــد فمـا أهون ••• أما غربة الروح والناس فكانت هي المنفى الذي يضرب في روحه كالعويل • وحيدا وجـد نفسه • رعيل الرفاق معظمه كان على الضفة الاخرى •• « طالب منصب أو عابـد درهـــم أو عاشق تــاج » أو أجـيرا للمستعمرين ••• حاول أن يكسر بيديه حدود الدائرة فانكسر شيء في داخله ••• وشيئا فشيئا ••• واجـه الفراغ والعدم وجها لوجه فانهار • انهار العملاق فيه •• فترك نفسه للموج يذهب به الى الاعماق ••• وفي غمرة ذلك الفراغ العدمي وجد الطريق ••• ولكن الى الماضي• هرب ••• هرب الى سرادب التاريخ يسأل في ارتياب :

فيـــم تسآلـــك عمن غبـــرا
ما ترى الايـام ملأى عبرا ؟

رب يــوم أنـت فيــه آمـن
لو أطعت الحزم كنت الحــذرا

هل عرف أنه ينتمي الى عصر آخر فذهب يفتش عنه؟ هل يئس من الاعلام الذين عاصرهم فذهب يبحث عن أعلام آخرين ؟ هل تكشفت له القمم التي عرف ، عن سحابخادع فذهب يبحث عن القمم الاولى ؟ بعض الشجر تذهـــب فروعه في السماء ثم تكـره النور فتعـود الى الغوص في الارض جذورا تحت صلابة الليلالقاسي وغصة التراب•• كذلك فعـل الزركلي • لانه لم يستطع أن ينجح ثائرا ولا استطاع أن يعيش أجيرا أو محايـدا ، هرب ••• الى التاريخ •••

سافر الرجل ! •• حين أعياه العيش مع النـــاس وعلى ترابهم الموبوء ، سافر في التاريخ • سافر داخـــل التراث ، في دهاليزه والى غير رجعة • صار التراث بيته الابدي ، أخذ يداوي به حنينه ، يملأ هربـه من عصره وقومه بأعصر أخرى وبقوم آخرين •

في تيه الرجال والاعلام الاوائلقرر أنيعيش ! هناك حيث أضاع الشيطان ابنه وذويه طرق الزركلـي بيـت فلانوعلان، وتحدث مع هيبن بي ، وشياط بنعلاط ••• أخرجهم من القرون الاولى • صفا على الابجديةوالترتيب• سال عن المولد والوفاة والمؤلفـات ••• كان التاريـخ العربي كله حيا وراء ضلوعه ، كاننبضه والشرايين فوجد فيه ذاته • كان أبدا في موكب من الذين بنوا للعرب تراث العرب يعيش معهم ويعيشون معه ••• فأعجبته اللعبة • أليس يغرق الاخرون همومهم في سحابة أفيون ؟ بكأس •

قرارتها كسرى ••• وفي جنباتها
مهى تدريها بالقسي القوارس

بمائدة خضراء تدور وتدور بالبستوني والكبـة ودوار الروليت ؟ فلم لا يكون أعلام الرجاللعبته ؟ هكذا انتقل الزركلي من الشعر الى التاريخ ••• صار الشاعر مؤرخا للرجال بعد أن خاب ظنه بالرجال • هكذا قضى سنوات العمر يجمع « الاعلام » في اثنى عشر مجلدا ••• كان يعيش يومه العادي مع الناس ، مع الملوك ، مــع السفراء ، مع الحياة العابرة ولكن ما ان يغلق على نفسه باب بيته حتى يفتح كعلي بابا كهفه السحري ويغرق في عد الكنوز وتقليب الجوهر ••• ألهذا يا ترى قال :

أيهـا السائلون عنـا بمصر
كيف نضحى وكيف فيها نبيت ؟
نحن في هــذه المدينة نحيـا
حين نمسي • وفي النهار نموت

ووقف الرجل ، في العمر الحقيقي ، عنـد أواسط الثلاثينات لا يبرحها • كل شيء كان يهرم فيه ومــن حوله ••• كل شيء الا همته في الركض وراء الماضين••• الى أن أضحى في الماضين ! ••

واليوم بعد نصف قرن من تلك الايام ••• وأمام الفقد الابدي للزركلي ننظر بين يدي الذكرى الى الرجل فلا نملك الا أن نرى فيه القنديل الاخير ! بمعان ثلاثـة كان القنديل الاخير • في رعيل الجهاد الاول كان • وفي الشعر كان • وفي التاريخ كان •••

تلك الكوكبة من فرسان الطليعة الاولى للنهضـــة العربية ذهبت كلها • سقطت على الدروب وضاعـــت حتى أصداء سنابكها في الساحات • من أعضاء جمعيـة العربية الفتاة وحزب الاستقلال العربي لم يبق احد ••• موكب النهضة كان في مطالعه عرس الاعراس • والرواد

بمختلف الاسماء والادوار والملابس كانوا في العرس . ألستم تذكرونهم ؟ مجموعة من القناديل كانوا أمام الموكب ومن حوله وقد تبدد الجمع منذ زمن طويل .. الضربة الاستعمارية التي أصابت المنطقة سنة ١٩٢٠ نثرتهم على كل درب . افترقوا كل جمع في طريق . بعضهم صار لبغداد وبعض لمكة وبعض لمصر وبعض لفلسطين والاردن أو لليمن وبعض مع هذا الملك وبعض تبع ذاك الامير وبعض هجر السوق والناس وبعض نافق أو ارتزق أو أصر على النضال المر أو هادن واستراح ... بينما تحول العرس والزغاريد التي كانت تملأ الحي الى مآتم وثورات ...

الزركلي كان من القلائل الذين فزعوا بآمالهم الى الصحراء العربية . الصحراء كانت وما تزال لدى بعض العرب قيمة نضالية ومفزعا للنقاء . أكذلك كانت بالنسبة اليه ؟ لست أدري ولعل له أسبابه الاخرى . لعله فقد الامل فاتجه الى نجد وعرار نجد ، وملك نجد ، صاحب الجزيرة . أم لعله فضل الخيار الآخر : خيار الاستقلال ؟ ..

بلى ! حين غرقت المنطقة العربية كلها بالطوفان الاستعماري بعد الحرب الاولى ، وحدها الجزيرة العربية بقيت خارج الطوفان . الرقعة العربية الوحيدة التي ظلت على الاستقلال ، كانت تمتد من صنعاء الى الرياض الى مكة ، بينما كانت الجزمة الاستعمارية فرنسية هنا وانكليزية هناك وايطالية في موقع ثالث تخوض بلاد العرب من الخليج الى المحيط .

ولجأ الزركلي الى كبرى الدولتين المستقلتين الوحيدتين في تلك الغمرة . فدخل الفسطاط المضروب واستطاب الفيء الظليل ... فلم يخرج من بعد ذلك أبدا ...

وانطفأت قناديل المجاهدين الاوائل واحدا بعد الاخر على مدى نصف قرن . وبقي الزركلي كان طائرا من طيور الربيع المهاجرة تأخر طويلا عن سربه بينما كان جيل الاولين قد اندثر وجيل الرواد ينتهي . وحين نعت الاخبار الزركلي بالامس . أحسست أن شمعة في قلبي تنطفىء . ان عصرا كاملا قد انتهى ، قد وضع نقطة الختام . كان موته نهاية عصر ! فقد كان القنديل الاخير الباقي من تلك الكوكبة الاولى . وكان لا بد يوما من أن يأتي دور القنديل الاخير !..

وفي الشعر ... في الشعر كان الزركلي في النصف الاول من قناديل تلك الايام الاولى . الدفعة الشعرية التي غذت نهضة العرب بالقوافي في الربع الاول من هذا القرن ، وكان أسياد المنابر فيها الرصافي وشوقي وحافظ والزهاوي واسماعيل صبري كان فيها للزركلي منبره أيضا ، رغم شبابه الغض . فاتحا دخل ندوة شعراء النهضة أولئك . وسيدا من أسياد القافية أخذ مكانه بين أبناء عبقر المنتشين.. وكل ما عرفه الناس عنه يومذاك. أنه نبتة عربية أصيلة نبت . ما كان يعرف أي لغة أخرى يوم قال الشعر ، ولا أي مذهب من مذاهبه ومدارسه وما يسطرون . الكتاتيب ثم كتب العرب وعلماء دمشق ودواوين التراث كانت عدته ، فاذا هو انطلاق على البحور وقافية مطواع ولغة أطوع ... الشعر ، هذا اللص الازلي الذي يسلب العرب حلومهم منذ الازل ، كان يتنزل على لسانه كالحديث العفوي وفي الشام حيث الكلمة الحلوة عبادة ، وحيث الاقانيم القومية قدس الاقداس وحيث يعرض بردى ويعرض ليماشي النيل والرافدين ويغزر وهو الساقية المسكينة ليصبح النسغ القومي للملايين ، لا بد للشاعر أن يفهم هذه الابجدية الشامية ليكون شاعر الجماهير وشاعر القضية . ولقد فهمها الزركلي كأحسن ما يكون الفهم . بردى بمائه البهيمي كالخمرة المعتقة سقاه حتى النخاع الشوكي . ومن أدغال الدلب والحور المخضلة بالفيء والهدير في النيربين كان يصوغ طينه الشعري . وكما يطلع الحقل السنابل ولا يدري وتشمخ شمم الجبال ولا تدري ويتدفق الينبوع ولا يدري كذلك كان الزركلي يقول الشعر خصبا شامخا متدفقا... أكان يقول الشعر ؟ لا كان يمطر . وكان مطرا بغزارة البكاء وحرارة البكاء ...الياسمين الدمشقي ثرثار يتفتح بالاف الدموع ويلقيها على أكتاف الحارات وفي صحن الدار ... أكان ضلالا بكاؤه ؟ ذلك التناقض بين الاحلام الطوباوية وبين صخور الواقع كان يمزق الزركلي . تلك النقلة الدائمة بين التفاؤل والتشاؤم كانت جرحا على مثاليته وموسيقى نفسه .

في غمرة الامال التي أطلقتها الثورة العربية كالمردة من القماقم ، كانت كل صدمة تأخذ عند الرواد أبعاد الفاجعة . وما كان أكثر الصدمات . وما أقسى ..وروح الزركلي كانت ... أرأيت موج البحر في انقلابه المستمر على ذاته ؟ كانت لطمات الواقع تستثيره للصراخ الحاد ، للرفض ، ليقول « الكلمة ».. والكلمة كالنار ان لم تتخلص منها في لحظتها أحرقتك . وبالرغم من جبروت القوى التي كان الزركلي يرفضها . فقد ظل يقبل تحديها سنوات . اللعبة المستحيلة بين الكلمة والقوة لعبها حتى النهاية . أقصى ما تستطيعه القوة ضد الكلمة هو اعدام الجسد

الذي يحملها . أما الكلمة فخالدة ، انها التحدي الابدي . ولقد حكم الزركلي بالاعدام مرتين ... واذا لم تطل جسده القوة الغاشمة فانها لم تطل – وهيهات لها أن تطول – كلمته ...

بلى ! قد يقال في سنة ١٩٧٧ أن تلك الكلمة من شعر العشرينات كانت تقليدية مكرورة ، شعر تلك الايام – تظاهرة . شعر – غناء للبرجوازية الوطنية التي كانت تمشي في الطليعة ولكن دون رؤية واضحة . وقد يقال ان شعر الزركلي كان غنائية طوباوية ، صلاة للاقانيم ، الابدية : الوطن . الوحدة . العرب ... بكائيات سادية قديمة تنزل بالسياط على الدهر والنائبات والخونة وليست بالتحدي الخلاق . انها الوقود وليست النار . انها ايقاد اللهب في الاعشاب وليست الثورة . هي تعويض عن الفعل . عملية تهدئة للوجدان القلق ، ولهذا تستبدل بالعمل اللعب اللفظي . وتهرب الى الماضي بدل اقتحام المستقبل ، فالثورة بالنسبة اليها ليست تجديدا للذات كما يجدد الطائر فينيق باللهب نفسه وتكوينه ، ولكنها موضوع للوصف والغناء ونظم الحسرات قوافي متوالية كقوافل الجمال تعبر الافق والغسق ...

وقد يقال ... وقد يقال ... على أننا ننسى أن الثورة لعهد الزركلي لم تكن قد حدثت بعد لا في الناس ولا في الكلمة ... كان ذلك الشعر هو المعادل الثقافي للجهاد الاعشى في ذلك العصر : جهاد الفرس ضد الدبابة والسيف ضد المدفع وهوج العاطفة ضد تخطيط الاستعمار هو اللغة الوحيدة ونقد التعامل المقبول في السوق .شعر الزركلي كان ابن عصره . ومع قمم العصر ركض ...

ومع ذلك فاني أزعم أن الزركلي ، برغم « الحذاء الصيني » الذي كانت تلبسه القافية في عصره وعنده ، تمرد وجدد . كان يرى في الغبش اطلالة فجر جديد في الكلمة الشعرية ، وكان يحاوله . صحيح أن شعره ما يزال يلبس العباءة والعقال ويجتبي بقطعة حبل ويلعب السيف والترس في الحفلات لكنه مع ذلك لوى العقال على جانب وترك العباءة تلوح أحيانا على أحد الكتفين ولعب السيف والترس ولكن ... أعطاه بعض الاحيان الايقاع الجديد! ومع أن غبار الصحراء ظل عالقا بلحيته والوفرة السابغة الا أن أنفاس الربيع المقبل كانت فيه . التجديد كان يأخذ شكل الموشحات عنده ، والتحرر من ارهاب القافية الواحدة كان يطل بين آونة وأخرى ... وقشرة العمود الشعري ، على تقليديتها العريقة الالفية ، كانت تتشقق . واذا كان فيه رنين الخلاخيل البدوية فقد كان فيه في الوقت نفسه بعض من « الجاز » الشعري القادم ....

على أني موقن أن قضية الشعر لم تكن قضيته . كان الشعر عنده بالعكس شعر قضية . كان يرجو أن يكون نفخ « الصور » في اليقظة العربية . أن يكون ثورة ... فلما طوقه اليأس حتى الصمت القاتل صرخ :

فـــان أصمت فما للعي صمتي
وبعض القول يحبس كالغمـــــام
فودعت المحبب من بيـــانـــي
وآثـرت السكوت عـــلى الكلام

بلى ! قال الشعر الكثير في مرحلة الصمت .. ولكنه كان شعرا للصمت ... للتذوق البياني الحلو ، ولهـذا توارى في الزحام ! يوم كان للحيرة ، للقضية الاستقلالية للبحث عن مستقر ، للجهاد يرمي بشرر كالقصر ، للعرب والوحدة : بينهما برزخ لا يبغيـــان . وللحنين يسحق ويصبي ، كان مسكنا للعواطف تجري في دمه كغنـــاء السيرين لاوديسيوس تدعوه هنا ، تدعوه هناك فلا يدري أين يجد الامل ؟ فلما تحطم كل أولئك كاناء من الصيني على الصخور ، لما انتهى كل أولئك الى هباء ، هدأ الالق الوهاج انتهى في القنديل لهيبه المشحون بالعاصفة، انتهت دفقة الزيت القدسي ... ربما لان زيتا آخر قد صب فيه !... القناديل الشعرية الاخرى التي عاصرتـــه كلها انطفأت ، واحدا بعد الاخر انطفأت . وكان لابد يوما من أن يأتي دور القنديل الاخير ...

وأما التاريخ ، فالزركلي فيه قصة أخرى . هـــو نفسه كان يعرفها جيدا وان لم تكن فصولها الكاملـــة معروفة للناس وكان يعرف ماذا يفعل وان كان الكثيرون لا يعرفون قيمة هذا الذي يفعل : يجمع الجذاذات وينظم الاوراق ، ويضيف الحواشي ويذيب النظارات فـــي المخطوطات ويضيف ورقة هنا وكلمة هناك ... سنين بعد سنين فلا العمل في اعتقاده انتهى ولا الاكثرون حتى من الاقربين كانوا يفهمون أبعاد ما يصنع ... فلمـــا طبع الكتاب الذي اجتمع له ، الطبعة الثانية الكاملة سنة ١٩٥٧ في عشر مجلدات ، كتب في مطلعه : « هذا انتـاج أربعين عاما أمضيتها في وضع الاعلام ... » وقد أضاف اليها بعد ذلك عشرين عاما أخرى ... ومجلدين آخرين، وتمنى في أيامه الاخيرة أن يتابع عمله من يتابع ... ماذا كان يصنع الزركلي ؟

أحد أصهاره قال له ذات مرة : لو كتبت كتابا من هذه الكتب الدارجة التي يقرأها الناس بسرعة وكل يوم..

أما كان أجدى وأوسع سمعة ؟ فقال : وهل تذكر أنت أسماء هؤلاء الذين يلقون كتبهم للناس في كل يوم ؟كتابي هذا سيذكرني الناس به ألف سنة ...

وصدق الزركلي المؤرخ العالم ! لقد كان يراهن على العمل الخالد . كان يعرف ما يجهله الكثيرون من أنه هو الحلقة الاخيرة في سلسلة من المؤرخين الدمشقيين عمرها بدورها ألف عام ... بلى ! هو القنديل الاخير في تلك المجموعة الدمشقية التي بدأت تسجل تراجم العلماء في دمشق وفي التاريخ الاسلامي كله ، منذ عشرة قرون حتى الان وبدون انقطاع الى أن جاءها الزركلي الاخير ... هل أعدد لكم الاسماء والكتب ؟ انهم يزيدون على الثلاثين :

أولهم : أبو الحسن الرازي ، المتوفى سنة ٣٤٧ هـ /٩٥٨ م . في مؤلفاته عن أمراء دمشق وعلمائها .

ومنهم : ابن زبر محمد بن عبد الله ، المتوفى سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م ، صاحب كتاب الوفيات .

٣ ـ ثم الكتاني عبد العزيز بن أحمد ، المتوفى سنة ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٣ م ، الذي ذيل على الكتاب السابق .

٤ ـ ثم الاكفاني هبة الله بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٠ م ، صاحب كتاب : جامع الوفيات .

٥ ـ ثم ابن عساكر علي بن الحسن ، المتوفى سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م ، مؤرخ دمشق الاكبر في تاريخ دمشق .

٦ ـ ثم ابن خلكان أحمد بن محمد ، المتوفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ، صاحب وفيات الاعيان .

٧ ـ ثم الصقاعي فضل الله ، المتوفى سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م ، صاحب تالي الوفيات .

٨ ـ ثم البرزالي القاسم بن يوسف ، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ / ١٣٣٩ م ، صاحب المعجم الكبير والمقتفي في التاريخ .

٩ ـ ثم الذهبي شمس الدين محمد ، المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م ، صاحب تاريخ الاسلام وعشرات التواريخ معه .

١٠ ـ ثم ابن شاكر الكتبي ، المتوفى سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م ، صاحب فوات الوفيات .

١١ ـ ثم صلاح الدين الصفدي ، المتوفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ غ ، صاحب الموسوعة : الوافي بالوفيات .

١٢ ـ ثم عبد الوهاب السبكي ، المتوفى سنة٧٧١هـ/ ١٣٧٠ م صاحب : طبقات الشافعية .

١٣ ـ ثم ابن رجب الحنبلي ، المتوفى سنة ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٢ م ، صاحب طبقات الحنابلة .

١٤ ـ وابن الجزري محمد بن محمد ، المتوفى سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م ، صاحب طبقات القراء .

١٥ ـ وابن قاضي شهبة أبو بكر ، المتوفى سنة ٨٥١ هـ / ١٤٤٧ م ، صاحب الاعلام بتاريخ أهل الاسلام .

١٦ ـ والبقاعي ابراهيم بن عمر ، المتوفى سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠م صاحب عنوان الزمان .

١٧ ـ والنعيمي عبد القادر بن محمد ، المتوفى سنة ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م ، صاحب العنوان في ضبطمواليد ووفيات الزمان .

١٨ ـ وابن طولون الصالحي ، المتوفى سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦ م ، صاحب : ذخائر القصر في ترجمة نبلاء العصر .

١٩ ـ والحسن البوريني ، المتوفى سنة ١٠٢٤ هـ/ ١٦١٥ م ، صاحب : تراجم الاعيان .

٢٠ ـ والنجم محمد الغزي ، المتوفى سنة ١٠٦١ هـ/ ١٦٥١ م صاحب : الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة .

٢١ ـ وابن العماد الحنبلي ، المتوفى سنة ١٠٩٨هـ/ ١٦٧٩ م ، صاحب : شذرات الذهب في أخبار من ذهب .

٢٢ ـ والمحبي محمد أمين ، المتوفى سنة ١١١١هـ / ١٦٩٩ م مؤلف : خلاصة الاثر في تراجم أهل القرن الحادي عشر .

٢٣ ـ والشمس محمد الغزي ، المتوفى سنة١١٦٧هـ/ ١٧٥٤ مؤلف : ديوان الاسلام .

٢٤ ـ والمرادي محمد بن خليل ، المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م ، مؤلف : سلك الدر في أعيان القرن الثاني عشر .

٢٥ ـ ثم البيطار عبد الرزاق بن حسن ، المتوفى سنة ١٣٣٥ هـ / ١٩١٦ م مؤلف : حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر .

وأخيرا ... جاء الزركلي فسلك في نفسه في آخر هذا الموكب الاقدم بكتاب : الاعلام . « ما يطمع من وراء ذلك ـ كما قال بتواضع ـ في أكثر من أن يكون له في بنيان تاريخ العرب الضخم أكثر من رملة أو حصاة ... » وما فعل ـ كما قال أيضا ـ أكثر من أنه وضع معجما في سير أعلام العرب والمستعربين لا تقل الحاجة اليه عن مثلها الى معاجم مفردات اللغة .. » « ففي الخزانة العربية فراغ ، وفي أنفس قرائها حاجة وللعصر اقتضاء » ...

لكن الزركلي من وراء هذا التواضع ، راهن على الخالد الباقي وكسب الرهان . هرب من عصره ليعيش كل الماضي في الاتي ، ونجح في هذا وذاك ، ترك قرنه ووطنه وأهله ، واللامع البراق من السياسة ، والحلو السخي من الشعر ... ليبسط جناحه على القرون المقبلة : سواد عالم ... صحيح أنه كان القنديل الاخير في سلسلة المؤرخين الدماشقة وانطفأ . الا أنه كان يوقد لنفسه منذ زمن القنديل الاخر : قنديل الخلود . انه شعلته الباقية (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) .

فسلام عليك يا خير الدين يا ابن دمشق من دمشق ! سلام على القنديل الاخير !

شاكر مصطفى

ذكريات

اكرم زعيتر

النادي العربي ، منذ ركز على ذروة قاسيون ثائر من « جند الله شبان البلاد ، يكره الذل ويأبى الاضطهاد » علما نمت ألوانه الاربعة على أمجاد وحضارات ، وبطولة وفتوحات ، وتلقفنا ، وتلقفنا ، معشر الاحداث ، في صفوفنا الابتدائية رسم ذاك الثائر :

« يقول للعلم الخفاق في يده
فيء من الارض ما تختار يا علم »

ذاك النادي العربي ـ ونادي اليوم نادي الامس ، اسما ومعنى ، فرضا ومرمى ، عملا وأملا • وفاء وأريحية ـ منبر وطنية وندوة قومية وموئل عربية ، ابتداء من الشيخ عبد القادر المظفر والخوري حبيب اسطفان ، حتى هذا الاوان ••

وقبل ثمانية وخمسين عاما ، ويوم اعتمرت لجنة « كنغ ـ كرين » هذا البلد للاستفتاء ـ ولكرين في تاريخ نضال دمشق دوي ـ ويوم توافت اليها وفود البلادالشامية تطالب بالاستقلال ، وقف على منبر هذا النادي فتانا خير الدين يهتف :

ما بال من حملت موازين الهدى
أعضاؤهم لم يحسنوا البرهانا
ان لم يغيثوا المستغيث وينصروا
مستنصرا فليكسروا الميزانا

ويصرخ في قومه :

من خال ان المجد يدرك هينا
فلينتظر بعد الهوان هوانا

وصك سمعي نعى أبي الغيث ، ولم تنعه في بيروت صحيفة في سطر ، و لااذاعة في كلمة ، وفي بيروت تعلم وعلم ، وأنشأ وتكلم ، وألف ونظم ! وقديما اعتذر شوقي عن تقصير المصريين في تشييع كاتبهم الاكتب ، الشيخ المنفلوطي يوم حاول أحمق أن يغتال زعيمهم الاكبر سعد زغلول :

اخترت يوم الهول يوم وداع
ونعاك في عصف الرياح الناعي
من مات في فزع القيامة لم يجد
قدما تشيع أو حفاوة ساع

على انني لم أجد في هول الاحداث اللبنانية ، وتلك الاعاصير ذات النيران ، ما يعتذر به عن جحود المجتمع العربي كله ، حتى بادر هذا النادي الندب الى أداء فرض الكفاية ، حميدا مذكورا ، رشيدا مشكورا ، فناديكم هذا في حالكات الكنود ، شعاع مروءة ، وقبس وفاء وجود •

خير الدين شاعرا أو ناثرا ، داعية أو ثائرا ،مؤرخا أعلاميا أو سفيرا دبلماسيا ، بحاثة منقبا ، مترجما معربا، عبقاليقا،رقيقارفيقالاأقوىعلىتوفيتهحقه متعجلا،وقدينهض ببعضه كتاب وخطباء ، لكنها ذكريات دونت بعضها في دفاتري ، ويجول بعضها مع خواطري : ففي الحداثةرتلت قصيدة « الفاجعة » وأنشدت نشيد « الشهداء » واستظهرت مطلع « ما رأيت وما سمعت » وفي جريدة « السياسة » المصرية قرأت « صقر قريش » وطالعتنا معشر طلاب الجامعة الامركية جريدة « الاهرام » وفي صدرها « جبار زمزم والحطيم » وجاءتنا « الشورى » في خفية لتلهب

مشاعرنا بقصيدة لشوقي :
« سلام من صبا بردى أرق » وباخرى لخير الدين :
« الاهل اهلي والديار دياري : والفرنسيون حين قصفوا دمشق :

ستروا بضرب الآمنين فرارهم
فاعجب لعار ستروه بعــار

والثورة الظافرة :

«ان انصفتايام ذيقار لنا سلفا
فنحـن اليــوم في ذي قـار »

وبلغت مطمحي في لقاء الشاعر منذ خمس واربعين سنة ، وتداعى استقلاليو فلسطين الى اختيار ناطقــة باسمهم ، فترأس الزركلي تحرير « الحياة » المقدسية ، وكلفت امانة التحرير ، وراح صاحبنا يرسل كل يـوم صيحة وطنية في مقال بليغ ، وخير الدين :

اذا اخذ القرطاس خلت يمينه
تفتح نورا أو تنظم جـوهرا

وكنت في آنفة الشباب اتلو عليه مقالي اليومي في «حياتنا الوطنية » ، فالقى من تشجيعهوالرضى ، ما حببت الي استقبال ملحوظاته ، وكانحريصا علىتجنيبي اغاليط شائعة بين الكتاب ، فكان ثالث ثلاثة أثروا في تثقيــف لغتي ، وتمحيص كلمتي ، والاثنان هما امام اللغــة العربية اسعاف النشاشيبي ، وشقيقي عـادل زعيتر . وقضت ظروف عائلية بان يشخص الى مصر فعهد الي في مشارفة التحرير وعنفت مقالاتي عنفوان شبــابي ، وارسلتها شظايا على الظالمين ، ومقامع على المتخاذلين ، وتلقيت انذارا من الباغين ، وبلغ ذلك خير الدين فكتب الي من القاهرة يقول : « سلم الله يديك فانت تجيدوتحسن في كل ما تكتب وتصنع ، ترى ماذا يريدون ان يكتب في مثل هذا الموقف العصيب ؟ اكتب لي فاني في خوف عليك شديد ، لا من أجل الجريدة والله ولكن من اجلك انت فاني اخشى عليك شدةالباغين الطغاة ، وقد وددت ان اكون الى جانبك ، أحمل عنك بعض العبء ، ولكن جرح الشقيقة لما يندمل » .

وحدث ان وقعت بيدي صورة فتاة يهودية تتدرب على رشاش ، وكانت قضية تسلحاليهود مما يضرم النقمة، ويهيج الخواطر . فحظرت السلطة نشرها ، فكتبت مقالا عنوانه « وحي الصورة » ونقلت وكالات الانباء احالتي الى المحاكمة ، فهتف بي خير الدين من القاهرة ليطمئن الى وضعي القضائي وقلت له مهاتفا : « انني مرسل اليـك كتابا ادبيا (عنيت به الصورة) ارجو ان يقرأه الاستاذ اسعد داغر ، وكان من اركانالتحرير في الاهرام ، وصديقا حميما للزركلي ، ثم حمل الي رسول كتابا منه وفيه : « ان الصورة قد نشرت في الاهرام وكـان من تأثيرها ان اضطرت دار المعتمد البريطاني في مصر الى اصدار بيان رسمي في انكارها » ثم تحدث عن قرار حكومة صدقي باشا ابعاد الامير عادل ارسلان من مصر واتهامه بالشيوعيــة تسويغا لابعاده ، وحث على توسيط مولانا شوكـة علي الهندي ، وكان ضيف فلسطين ، لدى السلطات البريطانية ، وقد اسفرت الجهود عن السماح للامير بـدخول فلسطـين موقتا وعلى شروط ، اما الجريدة فتوقفت ..

وعاد خير الدين الى فلسطين ، واشترك في المؤتمر الاسلامي الكبير ، وفي المؤتمر العربي الذي انبثق منــه ووضع في بيت الاستاذ عوني عبد الهادي ميثاق الحركة العربيةالقومية..واقام في حيفا واذكرانني ابرقتاليهارجو أن يكون خطيب الحفلة السنوية لمدرسة النجاح الوطنية بنابلس (١٩٣٢) فأجاب : « اني ، واقسم لك – حريص على أن تكون لي الحظوة ، حظوة التحـدث الى اضياف مدرستكم ، التي افاخر واعجب بهـا « وبرجالهـا » وفي الموعد القى خير الدين قصيدته التي سماها « الصادعة » فدوت في فلسطين ، واستظهرها فتيان فلسطين قال فيها:

بـين الزواجر والصـوادع
نفـس تنهنهــا النــوازع

حـرى تـذوب وتكتـوي
بلهيب حرقتهـــا أضالع
وقـف على الآلام تـرقـب
مـا قضـاء الله صـانــع

المطمح الاسمى – يثير كمينها – ودم الفواجع

وهز النفوس صارخا :

ان لم تشن الغارة الشعواء مقتحما فدافع
رد الاسنة بالاسنة والمدافع بالمدافع
حمي الصراع، فان حرصتعلى البقاء فثب وصارع
كن اولا أو ثانيا لا تأت في المضمار رابع
العلم درعك في وغاك فخض وغاك وانت دارع

القِ العصا وازحف بابيض من سلاح الله قاطع
وتخط هامات الرجال وكر ، فالميدان واسع
واستقبل الايام ، منشمر الذراع وصل وقـارع
ليس الزمان ـ على الصروف ـ بعابث الا بجازع
لا فاز بالآراب شيخ لم يناضل وهو يافع

وتبنى استقلاليو فلسطين قرار مؤتمر جمعيات الشبان المسلمين احياء ذكرى حطين وترأس الشيخ كامل القصاب لجنة التنفيذ ، وكان خير الدين لولبها وعريفها ، وتوالى الخطباء اللسن ، ثم تلا خير الدين مقتبسات من كلمات وقصائد لرشيد رضا والثعالبي وعزام ومحب الدين الخطيب والكاظمي ـ الذي يعده الزركلي شاعر العرب الاول يومئذ والامير شكيب وعبد الوهاب النجار ، وراح بعد ذلك يرنح المشاعر ويهز الاعطاف بترتيل قصيدته ، وأراني ، والله ، استصعب اجتزاءها ، ومما شدا :

عين الحمى تبكين ؟ والسحب تبكينا
لكل امر حين ، خلي البكا حينا
هاتي صلاح الدين ثانية فينا
الشيخ العرنين عزا وتمكينا
وجددي حطين أو شبه حطينا
ترى أسود الغاب تزأر في الاغوار
جحافلا تنساب كالعارض المدرار

• • •

سرى وركب النور من حوله كسري
يسبح في الديجور كالكوكب الدري
والعلم المنشور يرقب كالدهر
مرتكزا كالسور بين القنا السمر
يملي على المقدور ما شاء من امر

وختمهـا :

قل للمغيرينا من بعد ازمان
هذى ايادينا في كل ميـدان
انا نرى الدنيا انقـاذ اوطـان
لا تطمعوا فينا فالدهر يومان
ان الميادينا تهـوي بتيجـان
لا تدهقوا الاكواب انتم على منهار
كم من مغير خـاب
كم من ضعيف ثـار

ومما لازم هـذه الـذكرى ان خير الدين الح على اسعاف النشاشيبي بان يخطب في الحفلة ، وجعل اسعاف ينشيء الخطبة ، فلا يواتيه قول ألا متعتعاً ، ولا يسأعفه بيان يثبت على السبك وعيٌّ عن الخطاب ... فترك الخمرة ، وتناول صبح اليوم التالي فطوره ، فاستطابه للمرة الاولى منذ امد بعيد ، ثم انشأ يكتب ، فبرع وسطع ، وجلى وجود ، وخطبها فأقام واقعد ، حتى ان محب الدين الخطيب ، جعل عنوانها حين نشرها « اسطول النشاشيبي » وقال اسعاف لخير الدين بعد ذلك : « فكرت في العودة الى الخمرة ، ولكنني استحيت من صلاح الدين ، انني مدين بتركها لاثنين : صلاح الدين وخير الـدين » وسمعته بعد ذلك ينكر انه ذاقها ، لان عمره بـدا يـوم عافها .. ثم كتب « الاسلام الصحيح » ولاث العمامة حينا ، وقضى يدافع عن لغة القرآن وهو القائل : « غث قول لم يهذبه الكتاب » .. وامام اللغة هذا لم ينتخب عضـوا في المجمع اللغوي بمصر .. مع انه يخمل بعض خطبائه اذا خطب ، ويغبر في وجه بعض كتابه اذا كتب .

وخير الدين كظيم غيظ ، ورحيب صدر ، لطيف شفيف ، الا اذا مست كرامته فما الرعد الهدار ، ومـا العاصف الموار ، وقد تلسن عليه واش لذى سلطـان ، فامر باحتجاز الشاعر في خيمة ، وبلغ النبأ الفيلسوف الشاعر التركي رضا توفيق فهرع الى القـوم صارخا : « ويلكم ما تصنعون ؟ والله اذا كتب للشـاعر ان يعيش غد وتم اضحوكة التاريخ ! » وشق الغبـار جواد على صهوته فارس منجاد يصيح : « لعينيك يا خير الديـن » فاعيدت للشاعر حريته ، ولكن اثر الحادث وسم بعض ما نظم وكتب بسمته ، اما ذلك الفارس الغاضب للشاعر فهو الامير عادل ارسلان .

ومنذ حين اطلعني خير الدين على مخطوط رائع ، وصف فيه رحلته من القاهرة الى مرابط المجاهدين في وادي السرحان للقاء سلطان وارسلان . وقد انتدبته والوطني الشامي الصديق المفتقد الحاج اديب خير ، اللجنـة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني بالقاهرة لمهمـة وطنية ، وصحبهما المجاهد اديب العسلي ، ثم نظم في وصف الصحراء والسيارة التي أقلتهم قصيدة بعث بهـا الى الامير عادل ، قال شيخ العروبة احمد زكي باشا انها تزرى في موضوعها ببعض الشعر العالمي ، وقد روضت نفسي على الاجتزاء عنها ببعض ابياتها :

هوت عجل الشعثاء فيه كأنمـا
لوالبها شدت اليه باشطـان
ترى لزج غاصت باحشاء لجـه
فريسة يم بين اشداق حيتان

نهضنا بها جذبا ودفعا فزمجرت
وهبتهبوب الريح لم يثنها ثان
تلوت بنا لا يستقيم اتجاهها
مشردة حيرى تلوي ثعبـــــان
فبينا تراها شرقت قلت غربت
وبينا هي المطواع همت بعصيان
تمطت وارست بعد طول وخيدها
وقالت : برضوى تنهضونوثهلان
واضواء نـيران تنمست وقدها
فما انكشفت الا نواظر ذؤبان
تخب وتعدو في الدجى ام عامر
ويسبقها من مقلتيها سراجـان
كاني بوحشالقفر اشفق فانثني
فلا هو بالنائي ولا هو بالداني
وقديرحم ابن الغابخائض رمله
فيحنو وما في الناس ان تبلهم حان

واجابه الامير براتعة مطلعها :

ارقت وما في النوم خير لو سنان
اذا لم ينم شر المغير باوطاني
صبرت فما اذللت دمعا ولو جرى
مسحت باطراف التجلد أجفاني

وختمهـا :

ودنيا على ارض العدل عاطل
عليها سماء قـد تحلت بميزان
اكاد وقد عاشرت عمري اهلها
اخاف على المريخ يبلى بسكان

ولخير الدين – والثورة السورية تتلظى – جهود في الدعوة العربية في مصر ، وبطولات الثائرين سمت بنظرة المصريين الى بلاد الشام والشاميين ، وانبرى المـازني ، صديق خير الدين الاثير يرسل في صدر « البلاغ » كبرى الصحف الوفدية ، مقالات ضافية في سير يوسف العظمـة واحمد مريود وفؤاد سليم ورشيد طليع ٠ والمازني هو اول من نبه المصريين بمقال ضـــاف الى فضل الزركلي وشعره وأعلامه ٠

وارسل الزركلي الى الامير عادل في الميدان قصيدة طويلة وصف فيها قصف الجنرال ساراى دمشق :

ان هدموا بنيانها فكل قلب عامر
أو قتلوا فتيانها تنتقم العباقر
ووصف الامير الثائر :
كالبحر الا انه يشف وهو زاخر
خاض الوغى مسربلا باليأس وهو حاسر

ومجد فؤادا واحمد ورشيدا وانهاها :

ان اوحشت من اهلها الثغور والحواضر
ترنحت بمن بها الكهوف والمغاور

واجابه الامير بقصيدة مطلعها :

لهفي على الصحب الالى ضمتهم المقابر
لقد طواهم الردى فعلهم الناشر
تواردت آجالهم كانها خواطر

ووصف القتال

وخطب الرصاص والجماجم المنابر
وظلت المدافع الكبرى له تحاور
وانتظم الصف ، ولكن الرصاص ناثر

اما المخلصون :

الهتهم الالقاب عما ناب والمظاهر
ولائم الرغد لهم والمـال والمتاجر
ونحن للموت ومن لحومنا المجازر

واذكر في زوة لخير الدين ، ابان الهزاهز ، وبيروت تدمر ، وللموت فها جيئة وذهاب استشهدت ببيتين للامير عـادل :

كان للموت في العيون خيـال
ماثـــل وثبـه الى الارواح
ذهبت بهجة المنـون فعدنـا
نرقب الموت بين هذى البطاح

فقال احدهم : ليت الشاعر قال : « روعة المنون » ، فاجاب خير الدين : « الشعر في قوله : بهجة المنون ٠٠ لا في روعة المنون ، واعرب عن اجتهاده فيان الامير عادل اشعر من الاميرين شكب ونسيب ، وها هما ، كافيـــك مـن شاعرين فحولة وعلو طبقة في شعراء العصر ٠

ومما اذكره انانتصاراتتشرين قد رنحت خير الدين وراح ينظم قصيدة كان مطلعها :

يـا عـين ابكـاك الـزمـان
وعـــاد يعتـذر الـزمـان

وما تحدثنا عن الشبـــاب والعمر الا ذكرنا خير الدين بقوله :

قالوا : كبرت،قلت : شابت لمتي
وعلي من برد الشباب اهـاب
ليس الصبا الا بلهنية الصبا
اما السنون فما لهـن حساب

وزار كبير علماء الجزائر الشيخ البشير الابراهيمي شاعرنا فلم يجده فترك له بطاقة فيها :

الدين خير كلـه وانـا ارى
من خير هذا الدين «خير الدين »

كان « الاعلام » دأب خير الدين وشغله الشاغـل ، وعمله فيه مستمر ما امتدت به الحياة ، وقد ود لو استطاع

ان يعمل فيه وهو في المستشفى ورهن مبضع الجراح ٠٠ وقد نقح على سريره في المستشفى كتابه « ما رأيت وما سمعت » وبلغ من حرصه على استمرار « الاعلام » ان رصد مبلغا من المال اودعه البنك العربي باسم المجمع العلمي بدمشق مع وصية يوصي بها المجمع بمتابعة العمل فيه بعد وفاته ، على انه ما لبث بعد حين ان قال لي ما اذكر: « من فضل الله ان مد في عمري فوفقت لمقاربة الانجاز » اما الديوان فكان في المرتبة الثانية من اهتمامه ، وكنت لا القاه الا حثثته على طبعه ، وقد وقع العقد في بيروت لطبعه في دار العودة ثم جنح الى طبعه في القاهرة باشرافه، وهنا اهرب عن اعتزازي بجميل مذهبه في حين سلمني الديوان مفضلا وقال: «اشطب ما لا ترى ان يكون في الديوان»، وازدهتني هذه الثقة ، ولكن لم يبلغ بي الغرور مبلغا احذف معه بيتا واحدا لخير الدين ، وقد حرثت الديوان حرثا ورجوته ان يحذف بعض ابيات تنم على اثارة من مواجد فحذف معظمها واستبقى بعضها حفاظا على سمتها التاريخية ، وأراني اقول اليوم بملء فمي : من تمام البر بخير الدين والعلم والادب ان ينشر ديوانه واعلامه وتراثه٠

قبل مرضه بيومين أفضل علي بتناول الغداء مع الاسرة فكان طلق الوجه واللسان ، حديثا ، ممراحا ٠ ٠ ودار حديث حول الدمار والنهب والحرق فقال : لو احرق الاعلام القيت بنفسي في البحر اسفا ، ان صديقي عالم جزيرة العرب الشيخ حمد الجاسر قد سرقت اوراقه ووثائقه وخرائطه في اللعازاريه ، وانه لفي هم لا يعد له هم ٠٠ على ان ارادة الحياة تمد في عمري وتزودني بالقوة لانجاز الاعلام ٠ ٠وضرب مثلا سفيرا سماه لي ، قد رزق ولدا وهو في المئة من عمره يقول : « سأعيش حتى ارى وحيدي فتى ، وقد عاش اثنتي عشرة سنة فوق المئة » ، ولمح في مكتبتي مجلدا جاءني حديثا من ايران هو الفهرست للنديم في طبعة فارسية أنيقة وفي مقدمتها ان مؤلفه هو محمد بن اسحق النديم لا ابن النديم ، فاستعاره وتوفر عليه ليلته تلك ثم وضعه جانبا امانة ردت الي يوم دخوله المستشفى ٠٠

وفي المستشفى اجريت له عمليات اربع ، وبدا لنا مرضه عياء ولكن حدث في ظهيرة السابع عشر من ايار المنصرم ان رن جرس باب الدار ، وقضت الفتنة المحنة الا نفتح الباب الا بعد ان نتبين بالعين السحرية من الطارق ؟ ولم اكد اصدق عيني ٠٠ هو ذا خير الدين يتوكا على سائقه ٠٠ ظننتني في حلم ، اهلت ومرحبت بالشيخ الضاوي أو الطيف الحبيب الذاوي ، واجلسته مترفقا ٠ ٠ ثم خافتني متئدا : « الحمد لله اذن الطبيب لي بترك المستشفى ، وقد نذرت ان اجيء بيتك توا فتكون اول من يراني ، واعلم انك تفرح لرؤيتي » ٠ ٠ ومكث قليلا ٠٠ وقد اجترعت دمعي وهو يودعني بدعاء خالص ٠

وزرته بعد يومين في الفندق ، وكان مستلقيا على ظهره ، فانحنيت اقبله ، واجلسني على شفا السرير قابضا على يدي بقوة ، ومما قاله انه ذهب الى داره متكئا على ممرضته وجلس في مكتبه وعمل في « الاعلام » ساعتين واضاف اليه شيئا عن الاديب الشاعر المتوفي « امين نخله » وهنا حدثته عن لقائي الاخير امينا وفقدانه الذاكرة لكثير من الاسماء والاحداث والشعر ، وكيف توفى في عصف الرياح فلم ينشر من النعي الا سطور مأجورة ٠٠ واذكر ان خير الدين قال : انا اكبر من امين بعشر سنوات وذاكرتي ــ كما ترى ــ لم يصبها وهن ٠ واتينا على ذكر متزعم يطالع الناس ببيانات تؤرث الفتنة ، وتمزق لبنان زاعما الحيلولة دون تقسيمه فرددنا قول الزركلي :

ايها الحاملون الوية القوم
المسمون بيننا زعماء ٠
اخطبوا نستمع اليكم ، وزيدونا
بيانا نزدكم اصغاء ٠
وادعوا انكم خلقتم لنا الارض
لنحيا بخيرها والسماء ٠
شهد الله ، انكم في دياجير
وانا بكم فقدنا الضياء ٠
يعمل الناس الصامتون مضحين
وانتم ترددون الهواء ٠

وذات صباح هاتفني خير الدين : « انا مسافر الآن الى دمشق وصديقك ابو بشر الحبيب سليم يترقب وصولي ٠٠ وسيؤمن ما تقتضي به صحتي ٠٠ وهذا بيتي بيتك ، وهو مأمون الموقع فانتقل والاسرة اليه ٠٠ والآن استودعك الله وادعوه ان يحميك واهلك » وساورني خاطر متشائم وانا اردد : « مع السلامة يا ابا الغيث ٠٠ » نعم احسست انه الوداع الاخير ، فلن ارى خير الدين ، ولن اسمع خير الدين ٠ ٠ وانني اودع بعضا من نفسي وتاريخي ٠ ٠ ثم لحق « الخير » بجيله ورعيله فهتفت مع الرضى :

احبائي الادنين كم القى بكم
داء يمض فلا اداوي الداء
أحيا أخاكم الممات وغيركم
جربتهم فثكلتهم احياء
الا يكن جسدي أصيب فانني
فرقته فدفنته اجزاء

دمشق الزركلي

د . عدنان الخطيب

أحبها ، وجرى حبها مجرى الدم ، مالئا شغاف قلبه رضي به وأقام عليه .

لم تكن له بأم (١) ، ولكنه شرب لبنها طفلا ، ونشأ في أحضانها وعلى أرضها درج .

أحب صحون بيوتها، تحليها أحواض الكباد والليمون وتجملها شقفات زريعة بالزاهر من النبات ، يؤرجها الياسمين مساء ، فاذا تساقطت أنجمه في الصباح ضم شتاتها متمتعا بشميمها ونثرها عبثا .

أحب أجواء ربيعها ، يعطرها النارنج اذا تفتحت أكمامه ، فاذا اجتني الزهر لملم أهراره ، فمن مائه يستخرج عطر يدخر . واذا عقد ، سارع الى التقاط الدحاريج المتساقطة ، لتتخذ أمه منها دواء تهديه الى الامهات من جاراتها ، واذا نضجت ثماره ، انتظر من يصنع منها أطيب حلوى وأسوغ شراب .

أحب صيفها ، يكفكف الحرارة فيه ، نسيم مر على بحر أو بحرة ، يتدفق ما «بردى فيها .

أحب خريفها ، يفرش حقولها وبساتينها ، ببساط ذهبي من أوراق أشجارها الطيبة .

أحب شتاءها ، تتثاقل فيه أغصان الشمشير ، بحملها من الثلج ، فاذا سقط عنها ، تراقصت أوراقها الزاهية ، واهتزت ريانة نضرة .

أحب دروبها ، يزين مداخلها ، باعة الشوندر والحبوب والذرة والصبارة ، لكل منهم سمته وجرسه وموسمه .

أحب أهلها يتوادون بالزيارات ، ويتهادون الزهور والطيبات ، أحب الطيب في قلوبهم، والابتسامة على ثغورهم يلقون بها القريب والغريب على حد سواء ، أحب الشهامة فيهم ، والبدار الى النجدة في خصالهم ، أحبهم في اطمئنانهم اذا قنعوا ، وفي ثوراتهم اذا غضبوا ، وفي مزاجرهم اذا ظلموا .

أحب روعة الجمال اذا أطل عليها من ذرى «قاسيون» أحب طبيعتها ، يتمتع بمشاهدتها من « المنشار و«الميزان» أحب « النيربين » من جناتها ، وما في « النيربين » من ورد وآس وريحان . أحب ما فيهما من شحارير وعنادل

---

(١) اشارة الى أن الشاعر ولد في بيروت حيث كان أبواه في اقامة عابرة .

وعصافير . يستمع اليها وهي تغرد ، ويبثها رجع الالم في ضلوعه .

أنس مرة بعصفورة ، أفزعها عبث الصبيان بعشها، فناجاها بما يعتمل في نفسه من الاحزان ، وافترقا على عهد : لتصبرن حتى يكبر الصبيان ، وليعملن حتى يمحى الطغيان .

. . .

رحل عن الشام ، وذكر العصفورة والاماني :

عصفورة النيربين غني
واروي حديث الانين عني !
أنا المعنى ، وما المعنى
غير حنين ، أذاب مني
شغاف قلبي ، وحسن ظني !
ان أهو ، لا أهو غير آلي
دمي فداء لهم ، ومالي !
أحسنت ظني بهم ، فمالي
خابت أماني في الرجال ؟
ليت الاماني بالتمني !

أحب الشاعر عصافير الدنيا ، لانها تشبه عصافير بلده الحبيب ، ورآها في رأس العين ، بعيدا من دمشق ، فحن الى عصافير « النيربين » وتأجج الحنين في صدره :

بات يرعى النجم والنجم مطل
والجوى يسهر والحب يـــذل

ذكر « الشام » فأجرى دمعـــه
مستهلا ، وله في الشام أهـــل

تغـــذ الشوق بجنبي لـــه
مستناخا فاذا أهل وسهـــل

يا ليالـــي بوادي « جلـــق »
هل ترى يتبعمنك الوصل وصل؟

وجنان «السفح» و «الربوة» من
كان يدري أنني عنك أغـــل !

يا عصافير بـــ « رأس العـــين »
ما برحت تهبط نحوي ثـــم تعلو

خففي من لوعتي شاديـــــة
ان في القلب أسى لا يضمحـــل

ودهم الوطن الحبيب ، شر مستطير ، دك صرحا جهد أبناؤه .

في اقامته ، ولفه بظلام ضاعت فيه حرية استماتوا في استعادتها ونصب الغاصبون أعوادا تدلت منها الحبائل، ونسل الشاعر ليفلت من مكيدة دبرت له ، وترك دمشق باليا :

أنا في هواك كما يشاء هواك لي
كلف بحبك يـــا دمشق ودود

لم أنأ عنك قلى ولا لنقيصة
ما أنت الا ربعـي المحمـــود

ولقد هجرتك حين حاق بك الاذى
ما للاباة عـــلى الهوان قعود !

أقصيت عنك ولو ملكت أعنتي
لـم تنبسط بيني وبينك بيد

ويستشف من وراء الغيب بارقة أمل :

أترينها الايام ، تجمـــع بيننا
وترين عهـد صفائهـا سيعود ؟

اتضمنا بعـــد الشتات خمائل
ريـانـة وازاهـر وورود ؟

مالي تساورني الهموم كأننـي
هدف الليالي والزمان يصيـــد

أمسي وأصبح كالمدلـــه حائرا
يعتادني التأريق والتسهيد

وعهدتني ثبت الجنان على النوى
والنفس تضعف تارة وتئيـــد

نذروا دمي حنقا علي ، وفاتهم
ان الشقي بمــا لقيت سعيـــد

الله شاء لي الحياة ، وحــاولــوا
ما لم يشأ ، ولحكمه التأييـــد

سلك الشاعر دروبا جديدة لم تنسه ، على جمالها، الدروب التي أحب ، مر بوهاد وجبال ، فكان لا يذكر الا وهدان بلده الخضر وجباله الشماء ، يقول :«٠٠ولاحت لنا بعد الخروج من قرية » الحصن « ذرى » «حرمون » الشيخ وقد علاها الثلج ، فأذكرتنا الشام ، وما كنا لننساها » ٠

وغلب الحنين الشاعر ، فحمل نفسه الى دمشق ، وما خبت نار صدره الا برؤية من أحب ، وقال : كان لي أن أزور مهد الروح « دمشق » في شهر أغسطس عام واحد وعشرين وتسعمئة وألف ، وهناك اخواني الكثيرون ، فزاروني وزرتهم وادلهمت الخطوب ، جمال استبيح ، وملك ضاع ٠٠

أبكي ديارا خلقت للجمال أبهى مثال
أبكي تراث العزة ، والعز غال صعب المنال
أبكي نفوسا قعدت بالرجال عن النضال
أبكي جلال الملك كيف استحال الى خيال

و «عامان في عمان» يجدد كر لياليهما غربة الشاعر، وينكأ الجرح الذي لم يندمل :

لولا الحنين ، لما بكيت لياليــا
كانت دمشق بها تجــود وتمنع

لولا الحنين ، لما بكيت أحبــة
كانت تضمهم دمشق وتجمـــع

لولا الحنين الى دمشق وأهلهـــا
جفت بمقلتي الشؤون الهمـــع

لولا الحنين ، لمـــا بكيت بجلق
« قمرا يغيب وألف شمس يطلع»

لولا الحنين ، لمـــا غضبت لامة
في الشام ذرافة عليها الامـــع

لله ، للايام ، ما صنعت بهـــا
أيدي العداة ، وما ستوشكتصنع

لله للايام ، ما أبكي لهـــا
أنا ذلك المتفجع المتوجـــع

وتطول بالشاعر غربته ، واذا كان اختلاف النهار والليل ينسى ، فما أنست الايام شاعرنا وطنه في يوم٠

العين ، بعد فراقهـــا الوطنا
لا ساكنـــا ألفت ولا ســـكنا

ريـــانـــة بالدمع ، أقلقهـــا
أن لا تحس كرى ولا وسنـــا

كانت ترى في كل سانحـــة
حسنا ، وباتت لا ترى حسنـــا

لو مثلوا لي موطني وثنـــا
لهممت أعبد ذلك الوثنـــا

ويشاء القدر للخطوب التوالي ، أن تقرع صفاة الشام ، وتعجم من عود أبنائها بين حين وحين ، ويحس الشاعر ما يحس به أهلوها من خطوب :

الاهـــل أهلي والديار دياري
وشعار وادي النيربـــين شعاري

ما كان من ألم بجلق نـــازل
وارى الزناد ، فزنده بي واري

ان الدم المهراق في جنباتهـــا
لدمي ، وان شفارها لشفـــاري

دمعي لما منيت به جار هنـــا
ودمي هناك على ثراهـــا جاري

وحين يستئس بعض الناس ، ويظنون ان هذه الغمة ستطول وتطول ، يقول شاعرنا :

وطني ! طال بكائي والاسى مما عراكـــا
أترى تصفو سمائي ، وكمـــا أهوى أراكا؟
أنا لا أعشق مما عشق الناس سواكـــا
فيـك محياي ، ومثوى أعظمي تحت ثراكـا

ودار الزمن دورتـه ، وزحزح الغاصب عن أرض الوطن فكفكف الشاعر ما يتلظى به قلبه من حنين ، فـي سبيل انجاز عمل علمي رائد ، على أنه لم ينس دمشق مع ذلك ، ولم ينس أحباءه فيها :

ذكرت دمشق ، والايـــا
م ضاف ظلهـا فينـــان

وأرديـــة الصبا جـدد
وأحـــلام الهوى ألـــوان

ليالي الانس بالاخــــدا
ن ، قبل تفرق الاخــدان

عـــلى بردى وربوتــــه
وحـــول تـــلاطم الغـــدران

وبـــين خمائل النسريــــــ
ن والزنبق والريحـــــان

وأندية البيـــان الحـــــر
قائمة على أركـــــــان

منابرهـــــا ، مزاجرهـــا
لمن يطغى ، عن الطغيـــان

اذا كانت قيمة الانسان ما يحس ، فمن يستطيـع غير العلماء الاعلام ، أن يقوم « الاعلام » ! كتابلايستغني عن الاستعانة به عالم ، أو عامل في خدمة العربية وآدابها وتراثها ، انه عمل جليل تنوء بحمله العصبة أولو القوة من العلماء !

صنعه ابن دمشق الراحل وحده كلمة كلمة ، وتعهد صنيعه بالعناية والتوسعة وسد الثغرات ، يسهر الليـل يلحق به أكثر النهار ، بين خضم المصادر وأكوام الفهارس، ومجموعات الرسوم والمصورات ، حتى استوى في القمـة من أعمال المعاصرين ، صرحا ليس كمثله صرح •

كان لا يزور دمشق مهوى فؤاده ، وموطن أهلـه وأحبابه ، الا ليسرع الى بيروت ، يواصل جهوده في اكمال ما بـدأه ، ومرض هنـــاك ، وكان السهر والتعب نهكا جسمه وهدا قواه ، ولم تكن أحلى أمنياته أن يمن الله عليه بالشفاء لينجز الطبعة الجديدة من « الاعلام » فحسب ، بل كانت أن تحمل رفاته الى دمشق ، اذا وافاه الاجل ، ليدفن فيها ، وحمل نفسه الى دمشق ، فأنعشه هواؤها ، وطاب له ماؤها ، فاستعاد خلال أسابيع قليلة الكثير من نشاطه ، وعادت الابتسامة الحلوة الى ثغره ، وأخذ يروي لزائري أجمل ذكرياته ، وعمر أكثرها نصف قرن ويزيد •

زرت الفقيد مرات ، وكانت الزيارة تطول حينـا بالحاح منه ، في شجون شتى من الحديث ، وكم كانت « الدمشقيات » منها ، تدخل السرور على قلبه ، ثم انـه كان لا يترك فائدة تفلت منه أو تضيع على محدثه وكثيرا ما كان يقول : هذا خبر سبق أن قرأته مشوها ، وهـذا كتاب جديد علي أرجو أن يتاح لي الاطلاع عليه ، وهذا رقم يجب أن أسجله حتى لا تخونني الذاكرة اذا احتجت اليـــه •

ومر بنا الحديث على محنة لبنان ، وخطر لي لعبة « العرائس » وقلت : ان اللاعبينغدوا يستخدمون سلاميات أصابعهم في تحريك أجزائها ، وأعجبه التشبيه ، فأطرق قليلا يستحضر بيتا من الشعر يذكر أصابع « زينب » في السياسة الدولية ، قلت : ومن « زينب » هذه ؟ فابتسم رحمه الله وقال : كانت أيامنا لا تتكلم الا الانكليزيـــة الاصلية ، وكانت نكتة رائعة ، ضحكنا للاصالة فيهـا ، ولما فيها من دلالات •

وان أنس لا أنس جلسة فلت له فيها : « قرأت كتابا طبع حديثا بدمشق ، فاذا فيه كلمة لشيخ جليل

تشهد بشاعرية شاب دمشقي لا يتجاوز عمره العشريـــن، وقبل أن أتم كلامي ، اعتدل الشاعر بجلسته وبرقت عيناه وبادرني سائلا ما الكتاب ! ومن الشاعر بربك ؟ قلت : الكتاب هو « رحلات » للمرحوم محمد الخضر حسين شيخ الجامع الازهر ، والكلمة مكتوبة في رمضان سنة ثلاثين وثلاثمئة وألف للهجرة (١٩١٢ م) ونصها :

« ومن أدباء دمشق الشاعر المجيد السيد خير الدين الزركلي ، رأيته ينحو في شعره نحو فلسفة المعري » (١)

عاد الشاعر مطمئنا الى جلسته الاولى ، وافتر ثغره عن ابتسامة حلوة ، واغمض عينيه ، استعاد خلالها ، على ما يظهر ، ذكريات شبابه الذي فات .

ثم كان حديث طويل ، سمعنا خلاله طرائف عن حياة الشيخ محمد الخضر ومزايـــاه ، وعن اجتماعات الشاعر به في كل من دمشق وتونس والقاهرة ، واسمعنا رحمه الله من شعر الشباب روائع ما عرفتها في المنشور من شعره ، وأرجو أن تكون في ديوانه المخطوط .

ان الحديث عن ابن دمشق الراحل ، لا يوفيـــه حقه ، وان طال .

فلتكن ختام هذا الحديث عن « دمشقية » خير الدين الزركلي ، الاشارة الى كلمة واحدة ، خطها بيده في كتابه « الاعلام » قال : أنا « .. خير الدين بن محمود الزركلي » بكسر الزاي والراء « الدمشقي » ... ولدت في بيروت ، ولكن أبي « وأمي دمشقيان » .

بقي الشاعر المريض في دمشق الحبيبة بضعة أسابيع عاش خلالها مع أجمل ذكرياته وأحلى أمنياته ، وجاءه القاهريون من آله ، يرجونه الاستجمام بقربهم ، فلبى الدعوة ، على أمل لقاء جديد ، ولكن الاجل وافاه عـــلى ضفاف النيل ، فكانت مشيئة الله بأن يدفن الى جوار أحب الناس اليه ، أمه وزوجته وشقيقته ، حين لم يكتب له أن يضم رفاته ثرى البلد الذي أحب .

رحمك الله أبا غيث وعوض العربية ودمشق خيرا .

---

(١) واردف الشيخ في رحلته الى دمشق يقول :«فخاطبته بقولي»

يا محضرا في برد شعر للنهـى — روح المعري كي تغازل بالحكـم

من للقريض اذا دعوت وللقلم — روحا تردى جسمها ثوب العـدم

فاجابني بقصيدة من شعره البليغ ، تحتوي على نحو ثلاثين بيتا. يقول في طالعها :

من للقريض اذا دعوت وللقلم — والشرق صار بهالسبات الىالعدم

ألف السهاد النائمون به كمـــا — ألف العلاء الناهضون من الامم

ثم يقول :

ولرب ذي خطل يلقب عصرنا — عصر الرقي ، صحا فانكر ما زعم

ثم قال :

لو أن فيه أبا العلاء تحطمت — أقلامه ، ولما شدا ولمـا نظـم

ص ٨٢ من كتاب « رحلات » طبع دمشق ١٩٧٦ جمع علي الرضا التونسي .

دمعة على شقيق الروح

سليم الزركلي

... جاء دمشق للنقاهة ، فمكث بيننا شهرا وأياما نعم خلالها بجو الاسرة الذي حُرِمه زمنا طويلا .
وذهب الى القاهرة فمكث ، في جو الاسرة شهرين ، بين أولاده وأحفاده ووافاه الاجل هناك ، بينما كنا نترقب عودته .
فكأنه قصد دمشق والقاهرة ، ليودعهما الوداع الاخير ، ويودع أهله وأولاده فيهما رحمه الله ، وغفر له .

« أبا الغيث » رد علي صوابي
أحقا قضيت وخاب ارتقابي

فيا فرحة باللقاء السعيد
تصير الى حرقة واحتساب

رجعت لاهلك بعد الغياب
تواسيهم قبل وقع المصاب

رجعت اليهم خفيف الظلال
رفيع المقام ، عزيز الجناب

وكنت نأيت ولم تكتحل
جفونك ، يوما ، بغير احتراب

هجرت الديار الى منتأى
صليب المسالك ، جم الصعاب

بصدرك عزم يفل الهموم
وللحر يأبى هوان اغتصاب

رحلت ، وقد روع الآمنين
بلاء ، وجاست جيوش الذئاب

أحلوا دما في عروق تلظى
وروحك بين ضلوع غضاب

قضوا أن تموت ، ونجمك حي
ففتهم في انطلاق العقاب

وروعتهم بلهيب القوافي
وعريتهم في جلود انتداب

بعدت و «شامك» نهب الرزايا
تقلب في ضرم من حراب

أباحوا حماها وما كان حلا
ففص ثراها بذؤب الشباب

يسيل نجيعا على منكبيها
فتلقفه حانيات القباب

حملت الجراح على راحتيك
ولحن الجراح نشيج الرباب

تهدهدها في ابتسام الصباح
تنز حقودا ليوم الحساب

ومر الزمان طويلا طويلا
وأنت على حزن واكتئاب

تناجي الديار ، ومن بالديار
وما من مجيب ، وما من جواب

تعلمهم كيف يأبى الهوان
أبي ، وكيف فنون الغلاب

وهبت جحافل في « الغوطتين »
وثارت كواسر في كل غاب

تذود الفواجع والغاصبين
وتحمي الحمى من أذى واستلاب

فكنت اليها الرسول الامين
بين الشعاب ، وبين الهضاب

تشد العزائم تغلي انتفاضا
وما بك من خشية واجتناب

أ « خير » الاقارب والابعدين
و«خير» الصديق،و «خير»الصحاب

وسعت الرجال بحلم الحكيم
ونبل الحميم ، وفيح الرحاب

ولطف الانيس ، وأنس الجليس
بطول أناة ، وصبر عجاب

غذوت القلوب بحلو النشيد
ورضت العقول بسحر الكتاب

حذقت السياسة ، فن الحياة
فلست تمين ، ولست تحابي

وجبت القفار مع الناهضين
بصدق اليقين ، وصدق الطلاب

رضعنا الوشائج قربا وبعدا
لـ « ستين » مرت كطي السراب

يغذيننا بالهدى والبيان
ويرعيننا بالرضا والحباب

نحس جراح العلى والهين
فنرويه من دمنا بالمباب

ونحفز للمجد أخياره
ونحدو مروءاته للوثاب

لقد كنت لي أقرب الاقربين
وأنت «الشقيق»، اليك انتسابي

طبعت بروحك قلبي الفتي
فشب حليف الاماني العذاب

يرى العز في وطن الاكرمين
ويضنى له في احتمال العذاب

أتابع خطوك أنى سريت
اليك طريقي ، ومنك اكتسابي

علام مضيت وخلفتني
وحيد الجناح لظفر وناب ؟

وكنت أخاف عليك الردى
فتدمي ضلوعي عند ارتيابي

وجاء الاحبة والاوفياء
يعزونني ، نعم اجر الحباب

وكيف السلو ، وأين العزاء
وحزن « خناس » شعاري ودابي

أسقيه نفسي صباح مساء
الى أن يهال علي ترابي

. . . .

سأضمر وجدي في مقلتي
يفطر قلبي ، ويفري اهابي

وأقضي الليالي نجي الشجون
وهيهات يلطف حر مصابي

وأرخص فيك الدموع الغوالي
وأغلق دون السوانح بابي

قضيت حياتك رهن اغتراب
وآن أواني ، وحان اغترابي

. . .

عزاء « أمية » عن شاعر
تألق فيك ائتلاق الشهاب

عزاء « دمشق » وأنت الهوى
وفيك طوينا عقود الشباب

عزاء « شآم » العلى والجهاد
«شآم» الصب ، ومهاد التصابي

عزاء لـ « دنيا العروبة » ولهى
منابرها في أسى واضطراب

تحن لألا فها الغاربين
وكانوا الهداة ، وفصل الخطاب

تحن لفرسانها الملهمين
وقد رقدوا في مطاوى الغياب

عزاء لكل نجار أصيل
لكل دم في الربوع الرطاب

عزاء لـ « دنيا على الشام » تندى
مراتعهـــا بالحنين المذاب ...

عزاء لـ « عصفورة النيربـــين »
وللطير تسرح فوق الروابـــي

لدنيا المفاتن في « الغوطتين »
لدنيا النضـــال ، وساح العراب

لشمس المروج تراقص جذلـــى
لشمس مجللـــــة بالضبـــاب

عزاء لـــ « جلـــق » والامسيات
موشحة في سواد لخضـــــاب

عشية كان « الهـــزار » الغيور
يطربها من وراء الحجـــــاب

يغـــرد للقمـــر المشـــرئـــب
ضحوكا تستر خلـــف الربـــاب

يسائلـــه ، والخطوب الجسام
محومـــة في رقيق العتـــــاب

اتضحك في وجنـــات السمـــاء
وجنتنا مـــــن شجـــا في عبـــاب

• • • •

«أبا الغيث» نم في ضمير الزمان
شهيد النوى ، والمرامي الرغاب

وقر نزيل جنـــان الخلـــود
عليك السلام ، رضي الاياب

فقد كنت برا ، شديد الوفاء
نقي السريرة ، عـــف النقاب

لئن انكرت زمـــرة الادعيـــاء
مجالك في داميات الشعـــاب

تزف عــــــذارك للرابضـــين
تـــؤج حفـــائظهم كـــاللهـــاب

فليس يضيرك هـــذا الجحـــود
وما بك من مطعن أو معـــاب

فللوطن المفتدى ما عملـــت
وليس لغنم ، ولا لاكتساب

وللعلم جهـــدك والعـــارفـــين
ولا من جزاء ، ولا من ثواب

مهرت الحقيقة ، شمس الحيـــاة
عصارة قلـــب ندى الحبـــاب

نصلت « العباقر » نصل السهام
ونضرتهم في بـــديع الاهاب

عزاء لـ « اعلامك » الخالدين
وقد سفروا بعد طول انتقاب

ترصعهم بالبيـــــان الانيـــق
منائر في شامخات « الكتاب »

• • • •

«دمشق» ثوى في التراب الحبيب
وكـــل حبيـــب غـــذاء التـــراب

حضنت حداثته والشبـــــاب
فكان (النقاب) حفي الركاب

وكان لسانك في الفاجعات
وكان سنانـــك يوم الضراب

تمنى ظلالك تحنـــو عليـــه
فينتشي بريحك عند المـــآب

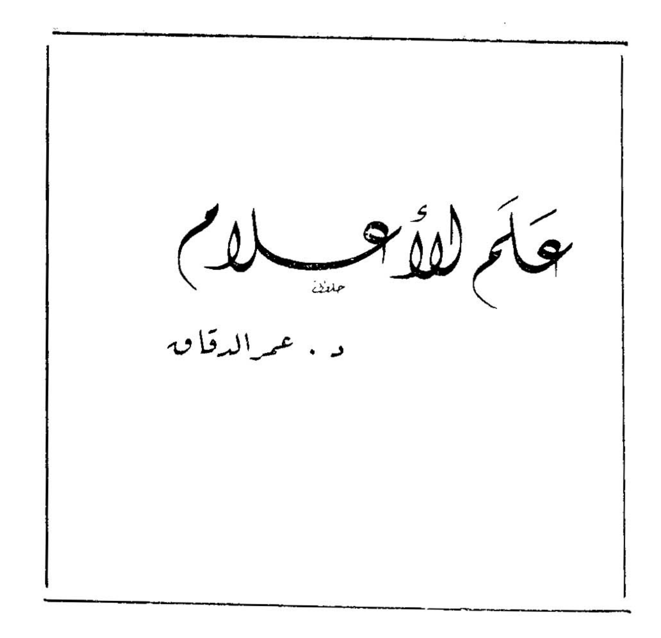
فشق الضريح بعيدا بعيـــدا
وعز على السيف دفء القراب

وفينا بعهدك رغم العقـــوق
وفيض أياديـــك طوق الرقاب

عشقناك فوق حـــدود الهـــوى
بأفئدة نزهت عـــــن كـــذاب

وهمنـــا بدهرك يضفو ضيـــاء
ويكسو الحضارة زهو الحقاب

لك المجد ما خفقت انجـــم
وحنت اليـــك صدو رالسحاب



ان وراء كل نتاج في العلوم والاداب والفنون أناسا مبدعين وأعلاما نابهين كانوا مصدر المعرفة الانسانية في آفاقها التي لا تحد • وان التاريخ لهؤلاء الاعلام فن قائم بذاته يعرف باسم (التراجم) أو باسم (الطبقات) كما كان يحلو للقدماء أن يسموه •

وقد اهتم العرب اهتماما بالغا بالتراجم ، ولعل هذا الاهتمام ناشيء عن حرص الاوائل على معرفة مدى صدق رواة الحديث وحفاظه ومنزلتهم في العلم والتقوى وفي الدقة والامانة باعتبار هؤلاء أئمة الحركة العلمية الشاملة ورواد حركة التدوين الحافلة • وبوسعنا القول أنه ما من أمة – فيمانعلم – جعلت لكتب التراجم والطبقات حيزا كبيرا في مكتبتها كأمة العرب •

وان نظرة عجلى في تراثنا الحافل تجعلنا نعجب لغزارة ما خلفه لنا الاجداد من مصنفات في تراجم الصحابة ورجال الحديث والاطباء والحكماء والادباء والشعراء والنحاة اللغويين •

ثمة قافلة مباركة رائدها أبو بكر بن اسحق الذي كتب سيرة النبي (ص) ثم ابن هشام الذي ألف في السيرة نفسها معتمدا على ابن اسحق وكان من اعلام هذه القافلة ابن سعد وابن حجر وابن سلام وابن قتيبة والامدي والمرزباني والثعالبي وابن ابي أصيبعه وابن بسام والزبيدي وياقوت والقفطي والسيوطي ••• وكان الى جانب هذه القافلة ، قافلة مباركة أخرى ، تعنى بالتراجم العامة كابن النديم ، وابن خير الاندلسي ، والخطيب البغدادي ، والحميدي ، وابن خلكان ، وحاج خليفة •

وما كان لاحد أن يقدر أن القرن الرابع عشر للهجرة أو القرن العشرين للميلاد يمكن أن ينجلي عن علامة جليل يدعى خير الدين الزركلي وعن كتاب شامل في التراجم العامة يعرف بكتاب الاعلام •

وعلى جلال كتب السلف في هذا المجال ، فان كتاب الاعلام – بلا منازع – تاجها • انه معجم شامل « لتراجم أشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين» كما أراده مؤلفه الزركلي ، وقد توافر فيه من المزايا ما لم يتوفر لاي كتاب سبقه في موضوعه ، اذ أتيح في هذا العصر للمؤلف من وسائل الاتصال بالشخصيات والاطلاع على المكتبات وتصوير المخطوطات ما لم يكن متاحا فيسالف العصور •

ولقد كان عمل الزركلي في السلك الدبلوماسي خيرا وبركة على شغله الدائب في كتاب الاعلام ، فضلا عن أنه ندب لمؤتمرات دولية كثيرة في حواضر بلاد العالم ، حتى لقد أمضى شطرا كبيرا من حياته مقيما في دمشق وبيروت وعمان والقدس وحيفا ومكة والرباط والقاهرة ••• كما تنقل بين حلب واستانبول وتونس والمغرب ، ورحل الى انكلترة وفرنسا وايطاليا واليونان والولايات المتحدة• ووقف خلال ذلك على الكثير مما احتوته مكتبات العالم من مصادر التراث العربي ونفائس مخطوطاته كما اتصل بالعديد من العلماء والباحثين عربا ومستشرقين الى أن استطاع في نهاية المطاف أن يبني هذا الصرح العلم النفيس الذي يعد بحق مفخرة التأليف في حياة العرب الحديثة •

ويكفي للتدليل على ذلك أن نشير الى أن عمل الزركلي في الاعلام استغرق ستين عاما من حياته المديدة الدائبة وان ثبت مراجعه استغرق وحده مئة صفحة أو تزيد •

وليس من شأننا هنا المبالغة ولا المجاملة لاننا بصدد بحث علمي يتصدى لعمل علمي • فالمزايا الجمة التي انطوى عليها كتاب الاعلام يدركها كل باحث يشمر عن ساعد الجد ليخوض عالم التأليف في تراث العرب الحافل • ولعل أبرز ما يتسم به كتاب الاعلام بالاجمال :

١ – انه كتاب شامل في التراجم العامة ينطوي على طابع موسوعي ، انه يترجم للبارزين في كل علم وفن من شعراء وأدباء ومؤرخين وعلماء وفقهاء ، ومن زعماء وسياسيين وقواد وملوك ومجاهدين •••

٢ ـ انه يترجم فضلا عن ذلك لاهم المستعربين وسائر المستشرقين ولا سيما من كانت لهم مشاركة في علوم العربية وآدابها ، أو عرفوا باهتمامهم بالتراث العربي والحضارة الاسلامية وهذا فضل لا يتوفر بطبيعة الحال في كتاب سواه في القديم وفي الحديث ٠

٣ ـ انه حوى تراجم المعاصرين والمتخرين من الاعلام مما لا نقع عليه في كتاب اخر ٠ على أن المؤلف ـ تبعا للخطة التي وضعها والتزم بها ـ لم يدخل في كتابه من المعاصرين الا من أدركته الوفاة واستقرت بالتالي ترجمته ٠

ومثل هذا المطلب شاق لان مادته لا تتوفر في الكتب والمصنفات ـ كما هو شان سائر التراجم ـ ٠

ومن هنا كان على المؤلف أن يستقي مادته هذه من حصيلة صلاته الدائبة لاعلامه الاحياء او بمكاتبه ذويهم أو معارفهم ٠ ولا شك أنه لقي في سبيل ذلك عنتا وارهاقا، بل جفاء وعقوقا مما أورثه المرارة ٠ ولولا عزم لا يلين على بلوغ الغاية وهوى لا يقهر في سبيل ادراك الهدف لزهدته المثبطات وعدل عن كثير مما كان يسعى اليه ويطمح الى تحقيقه ٠

٤ ـ حرص الزركلي ـ رحمه الله ـ على أن يتوج تراجمه بالكثير من صور الاعلام الذين تعرض لهم ، وبخاصة من المعاصرين ٠ كما حرص على رفد ذلك واغنائه باثبات نماذج من خطوط المؤلفين أو مسودات كتاباتهم وأشعارهم وبتصوير توقيعاتهم التي كانوا يدونونها بأيديهم من خلال رسائلهم ومكاتباتهم وصكوكهم ٠٠٠٠ كلما وجد الى ذلك سبيلا ٠ حتى لقد بلغ عدد هذه النماذج « الكليشيهات » في الطبعة الثانية من كتابه البالغة عشرة أجزاء ١٥٣٦ نموذجا مصورا ٠

٥ ـ انه دأب في تاريخ اعلامه على ايراد سنتي المولد والوفاة لكل علم يترجم له ، وعلى اعتماد التقويمين الهجري والميلادي ، مما ييسر على الباحث عناء كبيرا في مقابلة السنين المطلوبة من خلال هذين التقويمين ٠

٦ ـ توخى الزركلي في تراجمه الايجاز والتركيز ولم يفسح المجال خلالها لفضول القول وناقل الاخبار ونحو ذلك مما هو معهود لدى القدماء في كثير من مصنفاتهم انه ينفي عن تراجمه كل ما يتصل بأصحابها من أخبار وأشعار وما الى ذلك ، والترجمة لديه تعريف مقتضب لا يتجاوز أسطرا قليلة تتضمن في العادة تاريخ مولد صاحب الترجمة ووفاته بالسنوات الهجرية والميلادية معا، ثم اسمه الكامل ، وأبرز ما اشتهر به ، وأهم مصنفاته مع بيان ما كان منها مطبوعا أو ما كان مخطوطا او مفقودا ٠

وهذا المبدأ الذي توخاه المؤلف في التزام التركيز ونفي فضول القول عاد بالخير على كتابه ، وكلفه من استيعاب أكبر عدد ممكن من التراجم خلال هذه العهود المتطاولة من حياة العرب وامتداد تراثهم ٠

٧ ـ امتاز الاعلام بالحواشي القيمة التي ذيل بها الزركلي تراجمه انها ـ على ايجازها ـ بمثابة مفاتيح للباحث الذي ينشد المزيد من التوسع في المراجع المسهبة ونحوها ٠ وهذه الحواشي المكثفة والتعليقات الموجزة كثيرا ما تضارع في قيمتها الترجمة نفسها المثبتة في المتن أو تفوقها ٠

لقد رتب خير الدين الزركلي مادته الغزيرة ـ التي امتدت على ما يقارب أربعة عشر قرنا ـ على حروف المعجم مما جعل الافادة منه يسيرة المنال ٠ كما جعل الاسم الاول في المترجم له هو العمدة ٠ فالمتنبي مثلا يستخرج في أحمد ابن الحسين ٠ الا أن الزركلي توخى المزيد من التيسير على الباحث ولو كان ناشئا قد لا يعرف الاسم الاول للعلم لكونه مشتهرا بكنيته مثل أبي العلاء أو بلقبه مثل الجاحظ، فهو حين ينظر في مادة (أبي العلاء) يعطيه المؤلف اسمه (أحمد) وبذلك يرشده الى موضع ترجمته من الكتاب ٠ وكذلك بوسع الباحث أن يطلب (الجاحظ) في حرف الجيم وعندئذ يحيله المؤلف على موضعه الاصلي ، وهو حرف العين بعد أن يزوده باسمه وهو (عمرو بن بحر)٠

وقد ارتأى صاحب الاعلام بحق أن يغفل صدور الاعلام المبدوءة بـ (ابن ، أخو ، أبو) لكثرتها البالغة وبالتالي لصعوبة فرزها وتمايزها ٠ فابو فراس يستخرج في باب الفاء ، وابن النديم في باب النون وهكذا ٠٠٠

وما فعله صاحب الاعلام ـ جزاه الله كل خير ـ انه ختم أعلامه بأن ترجم لنفسه في الجزء العاشر أو الاخير من كتابه وبذلك أغنى الباحثين في حاضر الايام وفي قابلها عن الرجم بالغيب حول حياة المؤلف وما يتصل بمولده ووفاته وصفاته وأسرته وجنبهم الكثير من العناء الذي يكابده من يؤرخون للاداب والادباء حين يجنحون مضطرين الى الافتراض والتخمين دون أن يصلوا في كثير من الاحيان الى نتائج يقينية أو حاسمة ٠ جزى الله خير الدين الزركلي صاحب الاعلام خيرا ، جزاء وفاقا على ما قدم لامته وتراثه من فضل عميم سواء في شعره وفي كتبه الاخرى وأخيرا في موسوعته العظيمة « الاعلام » وبمثل هذا فليعمل العاملون ٠

حلب الدكتور عمر الدقاق



القصيدة التي القاهـا شاعر حمص

الاستـاذ عبـد الرحيم الحصني في حفـل تـأبـين
المرحوم الشاعر خير الدين الزركلي

اثنان ما عرف التاريخ مثلهما
علم ، وثورةانسان٠ وأنتهما

تجسدا بك من فجر الشباب فلم
يسمع زئيرك الا خالصا لهمـا

كم انتشيت وكم أخلدت معتكفا
عليهما ٠ وكم استأنست عندهما

أيام كنت ، وكان الشعرمحتجزا
طي الصدور،وكانالجور محتكما

وكان ما كان من ظلم ومن عنت
يجار متسع الاوهام بينهمـا٠٠

مآثر من بقايا الامس يعرفهـا
منعايش الامسلما استنفرالهمما

تلك الحكايات ما مرت نسائمها
بخاطر المجد الا اختال مبتسمـا

ياقاطف الشعر منكرم الاباء لقد
أصفيت للحق شعرا ناصعا ودما

لما ألمت بنا الاحداث وازدحمت
لم تغمد الماضيين السيف والقلما

ولم تقف دونصد البغي مرتضيا
لشعبك الشمم المجروح والبرما

حتى انجلى بجلاء الظلم كل غـد
مؤمل ، واستقر الشمل والتأما

عجبت كيف يرام العز مختلسا
ويشتهي المجد بين الناس متهما

العز ما كان بالاحسان مكتسبا
والمجد ماكان بالايمان مقتسما

مهلا أبا الغيث للفيحاءمنكهوى
ما زال في كل سمع ينشر النغما

أهديتها كل ما أبدعت من قبل
فكيف تحجب عن تلك الشفاهفما

لا ساكنا ألفت يوما ولا سكنا
عيناك يوم رأت غير الشام حمى

لئن سعيت لافياء الحجاز وقـد
حباك عاهلها الاكرام والنعمـا

فلست أول حر في الخطوب جنى
من ظلها المشتهى واستبعد السأما

لكنما الشام ما مرت بثانيـــة
الانبرى الشوق فيها والوفاء نما

وها هي اليوم لا آهاتها سكنت
على نواك ، ولا ميثاقها انصرما

وللمحبة ألوان وأصدقهـــا
ما أجج القلب لا ما رصع الكلما

يا مشرق المجد يا فيحاء ما عرفت
شمس العروبة أندى من رباك سما

بك ازدهت معجزات الامس وارتشفت
من راحتيك الفدا والكبر والشمما

والشعر مذ كان في أحضانك اعتدلت
دنياه فانساب لحنا خالدا وسمـا

كذا عرفتك يا فيحاء من صغري
غيثا على كل أغراس الجمال همى

مالي أرى اليوم سوق الشعر خامدة
بجانبيك ، ووهج اللغو محتدما

والجانحين عداة الضاد ما رحموا
باسم ـ الحضارة ـ أمجادا ولا قيما

قد مثلوا الطهر (يا للظلم) محتقرا
وصوروا ـ العهر ـ (ياللعار) محتشما

وزيفوا اللغة العصماء وانتهجوا
ما حل من سبل الدنيا ، وماحرما

اني أنزه قومي عن غوايتهـم
وكل جان سيلقى شر ما اجترما

فيحاء ذكرك موقوف على شفتي
شعرا نديا ووجدا ظامئا نهمـا

ردي لعيني وجه الشام وانتزعي
كل المساحيق ان الوحي ماعقما

فالود أسعده ما كان متصـــلا
والعهد أتعسه ما كان منفصما

يا لهفة نحن أولى باستجابتهـا
من البرية ان الشعر ما هرمـا

نحن السقاة العطاشى من خصائصنا
هذا العطاء . ولو متنا عليه ظما

عفوا أبا الغيث ان الداء ما انحسما
والجرح رغم الاساة الصيد ماالتأما

وأين والمحن الرعناء ما برحت
وما تزال ألوف تسكن الخيمـا

مشاهد يصفع التاريخ واجمهـا
كأنما العدل في اخراجها انهزما

طوت خوافي أحزاني على ألـم
اني لاعذر من لا يعرف الالمـا

فالسعد حيث يكون الجهل منفرجا
والهم حيث يكون العقل معتصما

يا شاعرا كان ملء السمع منتشيا
وثائرا كان ملء الدهر منتقما

أكان حظك من دنياك متفقـا
والمعطيات اللواتي كنت ملتزما

لا أحسب العمر وفى كل معتزم
من نعميات الاماني أجر مااعتزما

كذا العباقرة الافذاذ في بلدي
وأيهم من نيوب الدهر قد سلما

سيذكرونك بعد اليوم في صلف
اذا الاحاديث كانت سيرة العظما

يكفيك أنك في كل الصدور على
مر الزمان ضياء يهتك الظلمـا

والمكرمات اللواتي كنت رائدها
في كل صفحة خلد سجلت رقمـا

عبد الرحيم الحصني

التعريف بالشاعر الزركلي

انور العطار

شاعر مجيد معاصر ، من أكبر شعراء القومية العربية ومن أرقهم عاطفة ، وأصفاهم اسلوبا .

ولـد في بيروت سنة ١٨٩٣ ونشأ في دمشق شارك في الحقل الصحفي فأنشأ قبل نزوحه الى مصر سنة ١٩٢٠ م جريدة (المفيد) كما أنشأ في حيفا جريدة (الحياة) ، وأنشأ في القاهرة (المطبعة العربية) .

وشارك في الحقل الادبي ، فنشر في دمشق سنة ١٩١٩ م موشحته :

(ماجدولين والشاعر) ، وهي خلاصة رواية ـ ماجدولين ـ التي عربها عن الفرنسية الكتاب ـ (مصطفى لطفي المنفلوطي) ونشرت له مجلة (الرابطة الادبية في دمشق) موشحته : (العذراء) سنة ١٩٢١ وهي عرض شعري رمزي رائع لما اصاب سورية عقب احتلال الفرنسيين لها ، وكان خير الدين من أعضاء هذه (الرابطة الادبية) ومن مؤسسيها ، وفي سنة ١٩٢٣ م اصدر كتابه الاول : النثرى : (ما رأيت وما سمعت) وهو وصف شامل لما اصاب سورية عقب معركة (ميسلون) ، ودخول الفرنسيين « دمشق » ، وفي سنة ١٩٢٥ م اصدر كتابه النثرى الثاني : (عامان في عمان) ، وهو كاسمه يسرد ذكريات عامين في عاصمة شرق الاردن ، وفي السنة نفسها اصدر الجزء الاول من ديوان شعره الموسوم باسمه ، وهو صفحة من صفحات الجهاد والقومية ، وفي سنة ١٩٢٧ م أصدر كتابه (الاعلام) وهو قاموس وتراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين في الجاهلية والاسلام والعصر الحاضر ، ويقع في عشرة اجزاء .

وفي سنة ١٩٣٠ م انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق .

وشارك في الحركة القومية ، وناهض الاستعمار الفرنسي ونزح عن وطنه وحكم عليه بالاعدام غيابيا من قبل الفرنسيين ، فارسل عليهم شعره شواظا من نـار ، ولخير الدين الفضل في اثارة المواطنين على الغاصب المحتل ، وله شرف اذكاء الثورة السورية .

شغل وظيفة وزير مفوض في وزارة الخارجية السعودية ، وهو المندوب للملكة العربية السعودية لدى جامعة الدول العربية ، وقد رأس الوفد السعودي لحلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية مرارا ، كما رأس اخيرا مجلس الجامعة العربية في القاهرة في ١٩ /٦/ ١٩٥٤ م

خير الدين الزركلي

شاعر الوطن في جهاده ومآسيه

ما عرفت سورية شاعرا برا بوطنه ، متعلقا بـه ، على توالي المحن ، مثل خير الدين الزركلي الشاعر الذي حمل قيثارة العزاء في ليالي الوطن السود وغناه أبقى الغناء ، فما ناب « سورية » خطب ولا ألمت بالسوريين ملمة ، الا مسح باطراف قلبه مواجع المنكوبين ومدامع المعذبين ، فهو شاعر الوطن في جهاده ومآسيه ، وشعره البلسم الشافي لالام الصابرين ، وجراحات المجاهدين .

وخير الدين لم يسطع نجمه ، ولم يزك شعره الا حينما نزلت بوطنه النكبات عقب الحرب العالمية الاولى ، وعقب معركة « ميسلون » التي نشبت بين السوريين بقيادة وزير الدفاع في عهد الملك « فيصل الاول » القائد البطل « يوسف العظمة » ، والفرنسيين بقيادة « الجنرال غورو »، ولم يكن هناك تكافؤ بين الحق والباطل ، فدخل الفرنسيون « دمشق » وأطاحوا باستقلال ـ سورية ـ في اليوم الرابع والعشرين من شهر تموز سنة ألف وتسعمائة وعشرين ميلادية بعد أن استشهد كثير من الوطنيين الابرار الذين صبغوا تراب « ميسلون » بدمائهم دفاعا عن الوطن ، فدفنوا الى جانب مرقد الوزير الشهيد هذا هو يوم «ميسلون » العظيم الذي اصبح على كر الايام عيدا للشهداء في مراحل الجهاد ، وهذا هو اليوم الذي زاد في قيثارة الشاعر وترا جديدا ينبض بحب الوطن ، ويخفق بالذود عنه .

لهذا اليوم يوم « ميسلون » فضل على الوطن لانه دفع بنيه الى الجهاد ليموتوا كراما كما عاشوا كراما ، كما أن لهـذا اليوم فضلا على الادب ، لانه استثار

كبرياءه ، فهب بذكى حماسة السوريين وينهض هممهم ، ويوقظ عزائمهم ، ويحملهم حملا على مواثبة المستعمر الغاصب ، الذي سلبهم حريتهم وهي اشرف ما يعتزون به ويفخرون .

ويأبى القدر الا أن يضطلع خير الدين بآلام الوطن وأرزائه ، وأن يكون وحده الشاعر الذي تألم قلبه لينقى ، وعاش شعره ليبقى ، وهكذا فقد غادر مدينة « دمشق » خلسة في ليل (٢٤ تموز ١٩٢٠) بعد أن دخلها الفرنسيون، ميمما شطر القاهرة ، كما غادر الوطن الصفوة المختارة من ابنائه ، فقرر المجلس العسكري التابع للفرقة الثالثة من الجيش الفرنسي في الشرق ، والمنعقد في « دمشق » في (٩ أغسطس ١٩٢٠) الحكم بالاعدام غيابيا على خير الدين ـ ومصادرة أملاكه ، لانه جاهر بعداء الفرنسيين في جريدته التي يصدرها في « دمشق » باسم ـ المفيد ـ ولانه نعتهم بالغدر والخيانة ، ودعا السوريين الى مقاومة هؤلاء الجناة على استقلال سورية ، الذين قتلوا حريتها ، ووأدوا نهضتها ، وعاقوها عن السير في سبيل الحياة ، وبذروا في قلوب بنيها البغضاء ، وطاردوا من شاء ـ لهم الهوى أن يطاردوه من شبابها الاحرار .

على أن خير الدين لم يرهبه الحكم عليه بالاعدام ، ولم تفزعه مصادرة أملاكه ، لانه يعلم حق العلم أن للوهم صولة وتضمحل ، وللارهاب دولة وتدول ، وأن الرجل الذي ألف رؤية المشانق أربع سنوات متواليات ، وصلب عليها من اخوانه العدد الكثير ، لم يعد حكم الاعدام مما يخيفه فليلتمس محتلو سورية ثانية طريقة لبث الرعب في الافئدة ، واماتة الشعور ـ في النفوس ، وقتل الايمان الوطني في القلوب ، ليلتمسوا أسلوبا آخر لا يصيب الاجسام فانها ذرات تفترق وتجتمع ، ولكن يصيب الارواح فان فيها ـ المقاتل ، وهيهات عبثا يحاولون وسدى ما يعملون ! .

فما اكبر خير الدين وهو يتحدث في هذين البيتين عن هؤلاء ـ الفرنسيين الذين نذروا دمه ، وشاؤوا له الموت ، وقد شاء الله الحياة :

نذروا دمي حقا عليَّ ، وفاتهم
أن الشقي بما لقيت سعيد

الله شاء لي الحياة ، وحاولوا
ما لم يشأ ، ولحكمه التأييد

ويتميز الشاعر غيظا ، ويستشيط غضبا ، حين يرى العبيد يحكمون الاحرار ويجوسون خلال البلاد ، ويعيثون فيها الفساد ، مشيرا بذلك الى برابرة السنغال الذين ساقتهم سوق النعاج الى قتال الناس :

لهفي على وطني يجوس خلاله
شذاذ آفاق شراذم سود

أبرابر السنغال تسلب أمتي
وطني ، ولا يتصدع الجلمود

شر البلية ، والبلايا جمة ،
أن تستبيح حمى الكرام عبيد

واذا احس الشاعر من بلده استكانة الى الذل واستنامة الى الضعف ، اهاب به بمثل هذه الابيات :

بلد تبوأه الشقاء فكلما
قدم استقام له به تجديد

لانت عريكة قاطنيه وما دروا
أن الضعيف معذب منكود

لمسوا حبال حقوقهم فتشبثوا
والحق يعوزه قنا وبنود

ما تنفع الحجج الضعيف وانما
حق القوي معزز معضود

ويزدهيه الشعب المناضل الذي عرف الحياة فسلك اليها سبيلها ، فما من غالب ومغلوب وما من منتصر ومنكسر ، وانما الغلبة للذي يسقط ولا يعرف كيف ينهض :

في ذمة الاجيال نهضة امة
اودى بها التهويل والتهديد

وثقت بعهد الاقوياء فأسلمت
هيهات ما للأقوياء عهود

ما سجل التاريخ عبرة وأدها
الا لينهض في الغد الموؤد

والشعب ان عرف الحياة فماله
عن درك اسباب الحياة محيد

ولكن الشاعر الذي يتفجر رجولة وبطولة يغلبه الشوق الى دياره ، ويحز في قلبه الحنين حزا فيضعف حين يخلو الى نفسه ، بينا هو قوي متين حين يتحدث الى أمته ، وها هو ذا خير الدين يناجي دمشق أرض ميلاده ومألف طفولته ومسرح شبابه :

أنا في هواك كما يشاء هواك لي
كلف بحبك يا « دمشق » ودود

لم أنأ عنك قلى ولا لنقيصة
ما أنت الا ربعي المحمود

ولقد هجرتك حين حاق بك الاذى
ما للأباة على الهوان قعود

أقصيت عنك ولو ملكت أعنتي
لم تنبسط بيني وبينك بيد

أترينها الايام تجمع بيننا
وترين عهد صفائها سيعود

أتضمنا بعد الشتات خمائل
ريانة وأزاهر وورود

مالي تساورني الهموم كأنني
هدف الليالي والزمان يصيد

أمسي وأصبح كالمدله حائرا
يعتادني التأريق والتسهيد

وعهدتني ثبت الجنان على النوى
والنفس تضعف تارة وتئيد

ويشجيه الحنين الى الوطن فيرسل مثل هذه الزفرة :

وطني طال بكائي
والاسى مما عراكا

أترى تصفو سمائي
وكما أهوى أراكا

حاولوا مسك بالسوء
وهموا بأذاكا

أنا لا أعشق مما
عشق الناس سواكا

فيك محياي ومثوى
أعظمي تحت ثراكا

ويسمو به الحنين الى الوطن حتى يصوغ الحنين شعرا في مثل هذه النجوى التي تقطر رفقا وتذوب شوقا :

العين بعد فراقها الوطنا
لا ساكنا ألفت ولا سكنا

ريانة بالدمع أقلقها
أن لا تحس كرى ولا وسنا

كانت ترى في كل سانحة
حسنا ، وباتت لا ترى حسنا

والقلب لولا أنة صعدت
أنكرته وشككت فيه أنا

ليت الذين أحبهم علموا
وهم هنالك ما لقيت هنا

ما كنت أحسبني مفارقهم
حتى تفارق روحي البدنا

يا موطنا عبث الزمان به
من ذا الذي أغرى بك الزمنا

ما كنت الا روضة أنفا
كرمت وطابت مغرسا وجنى

عطفوا عليك فأوسعوك أذى
وهم يسمون الاذى مننا

وحنوا عليك فجردوا قضبا
مسنونة وتقدموا بقنا

وتنقلب هذه المناجاة عبادة فيحسب هذا الغريب المعذب أن الوطن لو تمثل له وثنا لهمّ بعبادة ذلك الوثن :

ان الغريب معــذب ابــدا
ان حــل لم ينعم وان ظعنا

لو مثلوا لي موطني وثنــا
لهممت أعبد ذلــك الوثنا

وما أشجى شاعر الحنين والاغتراب حين يتخذ مـن عصفورة « النيربين » رسولا يحمل عنـه الشوق الى دياره والحنين الى احبائه :

عصفــورة النيربــين غنــي
واروي حديــث الانين عنــي

أنــا المعنــى ، ومــا المعنــي
غــــير حنــــين أذاب منــــي
شغاف قلبي وحسن ظني

عصفورة النيربــين نــوحــي
يضمــــد النوح من جروحي

لم يبق لي الهمّ غير روحي
ما القلب ما الجسم بالصحيح
مــا بــــي عــرق بمطمئــن

ألفــت شجوي وعفت لهــوي
فأين صفوي وأين زهـــوي

سكرت حتى نسيت صحــوي
ومن كئوس النكــوب نشـري
ومن أجاج الخطوب دني

أن أهــو لا أهــو غــير آلــي
دمــي فــداء لهــم ومــالــي

أحسنت ظني بهــم فمـــالي
خــابت أمــاني في الرجــال
ليــت الامــانــي بالتمنـــي

ويغضب الشاعر لامته تلاقي من المحتـــــل صنوف العذاب ، لانها تأبى الضيم ، ولا تطيق الهوان ، وتستعذب الموت لانه الطريق الى الحياة :

ان في الشآم امــة لا تطيــق
الضيم،تأبى لها العلى أن تطيقا

أوسعوهــا تعلــة ووعــوداً
وسقوها من الخداع رحيقــا

أنذرونا بالموت ما أعذب الموت
اذا كان للحياة طريقــا ٠٠

وتندلع الثورة السورية الكبرى على الفرنسيـين من كل جانب سنة ١٩٢٥ م ويلقى المحتل من الثوار ضروب الكر والفر ، وتنهزم جيوشهم تلقـــاء صفوف الثورة المتراصة المملوءة ايمانا وحماســـة ، فتتراجع محتميـــة بالقلاع والمدن ـ الآهلة بالناس ، ثم يجن جنون الفرنسيين فيضربون « دمشق » بالقنابل ويضرمون فيها النار من كل جانب ، وتتهدم أقدم مدينة في الارض ، وتحترق عروس الشرق ، وتحل النكبة الكبرى بدمشق فيرسل شاعرها البار هذه الدمعة بل هذه الحسرة :

الاهل أهلي والديار دياري
وشعار وادي النيربين شعاري

ما كان من ألم بجلق نــازل
واري الزناد فزنــده بي واري

ان الــدم المهراق في جنباتها
لدمي وان شفارها لشفاري

دمعي لما منيت به جــار هنا
ودمي هناك على ثراها جاري

يا وامض البرق اطمئن وناجني
ان كنت مطلعا على الاسرار

ماذا هناك فان صوتا راعنــي
والصوت فيــه جفوة الاذعار

النار محدقة بجلــق بعدمــا
تركت « حماة » على شفير هار

تنساب في الاحياء مسرعة الخطى
تأتي على الاطمار والاعمــار

والقوم منغمسون في حمآتها
فتكــا بكــل مبرأ صبـــار

الطفل في يد أمه عرض الاذى
يرمى وليس بخائض لغـمار

والشيخ متكئا على عكـازه
يرمى وما للشيخ مـن أوزار

صبرت دمشق على النكال لياليا
حرم الرقاد بها على الاشفـار

لهفي على المتخلفين برحبهـا
كيف القرار ولات حين قرار

يترقبون المـوت في غدواتهم
واذا نجوا فالموت في الاسحار

لا يعلمون أفي سواد دجنـة
هم سهد أم في بياض نهـار

الوابل المدرار من حمم اللظى
متواصل كالوابـل المـدرار

والظالم منطلق اليدين محكم
يا ليت كل الخطب خطب النار

ثم يطلق خير الدين هذه الصرخة المدويـة على هؤلاء الذين يدعون انهم رسل الانسانية ، وحملـة الحضارة ، وان الانسانيـة لتبرأ منهم ، وان الحضارة لتأنف أن ينسبوا اليها :

ويح الحضارة كيف يمتهن اسمها
متكالبون على الضعاف ضواري

هم أوردوك وأصدروك على صدى
فشقيت في الايراد والاصـدار

هم أحرجوك فأخرجوك مهيجة
فصرخت فيهم صرخة الجبار

طالت لياليك الثلاث وانمـا
في مثلهن يلوح نهج الساري

واذا الظلام عتا تبلج فجره
(ظلم الحوادث مطلع الانوار)

ما انهار قصر في حماك ممرد
الا ليرفع فيك قصر فخـار

ما دمروك هم ولكن دمروا
ما كان فيك لهم من استعمار

حملوا عليك مواثبين وما لهم
ثأر ، وثرت وأنت ربـة ثار

ما ينقمون عليك الا انهـم
شهدوك غير مقودة لصغـار

فاذا المنازل وهي شامخة الذرى
منهـار اطـلال على منهار

واذا المدينة «تدمر» او «نينوى»
أنقاض عمران ورسـم دمـار

ويبارك خير الدين هؤلاء الذين اشتروا ديارهـم بدمارهم ، والذين انفوا حياة الشاء في يد الجزار فثاروا هائجين مائجين :

المشترين ديـارهم بدمـارهم
وهم يرون به رياح الشاري

أنفوا حياة الشاء كل عشية
وضحى تعيث بها يـد الجزار

ويحيي الشعوب المستفيقة بعد طول انتشاء :

ان الشعوب لتستفيق ان انتشت
والصحو غايـة نشوة الاسكار

ويتهكم على الآلاف من شجعان الفرنسيين ينهزمون أمام حفنة من الثوار :

وانظر الى الآلاف من بسلائهم
يغزوهـم مئـة مـن الثـوار

من كل مغوار صليب عـوده
يقتـاد كـل مدجج مغوار

الواثبـين اذا يقال : تأهبوا
والقاحمين اذا يقال بـدار

ثم يمعن الشاعر في استهزائه بهؤلاء الفرنسيين اللائذين بأذيال الفرار ، ـ والمتوارين خلف الاسوار ، والذين ستروا هذا الفرار بضرب الآمنين واحراق المدن بالساكنين :

طارت بألباب الفرنجة صيحة في
الشام فاندفعوا الى الاسوار

واستهدفوا الاطفال في حجراتها
والمطفلات وهن في الاجحار

عموا بمضطرب القذائف كل ذي
ضعف ، وخصوا كل ذات سوار

ستروا بضرب الآمنين فرارهم
فاعجب لعار ستروه بعار

ويستمر هذا النضال ، وما أنبل النضال في سبيل الحرية ، فيبشر خير الدين بانبثاق فجر الخلاص :

نضال طويل الذيل ، أما صباحه
فيوم سقوط الغل عن كل مغلول

ويشرق فجر يوم الخلاص ، ويجلو المحتل كارها عن ارض الوطن ، فيبارك خير الدين هؤلاء المجاهدين الذين وثبوا كومض البرق ، وانتفضوا كما انفجرت في الجبل فوهة بركان فما صدم اليأس قلوبهم ، لا استكانوا الى الردى :

اذا صدم اليأس القلوب فانما
لها بين موت أو حياة سبيلان

وثوب كومض البرق ليس بمقصر
ووهن كذاوي النبت ليس بريان

سبيل الردى أن يستكين الى الردى
محالف خسران ابي غير خسران

ونهج الحياة المرتضاة انتفاضة
كما انفجرت في الطرد فوهة بركان

ويعود خير الدين الى « دمشق » بعد اغتراب طويل ، فتستقبل المدينة شاعرها بالحفاوة البالغة ، لانها رأت فيه الشاعر البطل الذي كان وما زال روح هذا الزمن الذي نعيش فيه ، ثم الى ذلك روح هذا الشعب وهو احد بنيه ، انه الشعر ثائرا وصاخبا ، وانه الفن شاكيا وناحبا ، هو الى ذلك صورة هذا الشعب في حماسته وثورته ، وفي قلقه وأساه ٠

هذا هو خير الدين الذي وصل الى مصاف العظمة حين شعر ان حياته ملك قومه ، وأن ما وهب الله له من عبقرية انما كان في سبيل وطنه ، وفي سبيل مواطنيه ٠

وهذا هو الشاعر الذي اشاع الحياة في الفاظه ، والقوة في معانيه ، وسكب روحه انغاما يهدهد بها الوطن الجريح آونة ، ويثير بها العزائم آونة ، كل ذلك في اسلوب يتميز بالعمق والاصالة ، ويحفل بالاشراق والوضوح ، ويطفح برهافة الحس ولطافة الجرس ، فشعره كما يقول « موسه » : « كالماسة ، واللؤلؤة ، وقطرة الندى ، ولكن فيها كل معاني النور والبحر ، والفجر » ٠

هذا هو خير الدين الشاعر البطل الذي فاق الابطال حين اوحى الهم ـ ما يفعلون ، اليس الشعراء والابطال ـ كما يقول « الامرتين » من سلالة واحدة ، لان الابطال يفعلون ابدا ما يتصوره الشعراء

أنور العطار

ساعة مع خير الدين الزركلي

د. بكري شيخ أمين

كم تمنيت في حياتي أن أجلس ساعة بين يدي هذا العالم الذي هو صورة عن السلف الصالح أتتلمذ له ، وأقبس من فضله ، وأرشف من علمه •

وكانت مني جرأة بالغة يوم أدرت قرص الهاتف في بيروت على رقمه في يوم الاحد ، العشرين من رمضان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة بعد الالف للهجرة ، والموافق للسادس من شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة أربع وسبعين وتسعمائة بعد الالف للميلاد •

وما هي الا لحظات حتى جاءني الصوت من الطرف الثاني يقول : أنا خير الدين •

ولم أدر حينئذ ما أقول ، ولكني أذكر أني قلت : سيدي • قد لا تعرفني ، وقد لاتكون بحاجة الى تعرفي ، وقد تكون بغنى عن اضاعة لحظة من وقتك الغالي في لقائي ، أو خطابي لكني بشوق أن أتطلع اليك ، وأسمع منك كلمة ، وأعترف بفضلك الكبير علي وعلى أمثالي ••

وبصوت يفيض وقارا ، ولهجة ما كان أحلى منها ولا أروع قال : أهلا وسهلا بك في كل وقت •

وفي انتظار الموعد المحبوب طافت بنفسي المعالم الكبرى في حياة خير الدين •

ولقد ولد في بيروت من أبوين دمشقيين سنة ١٣١٠هـ /١٨٩٣ م ، وحصل علومه الاولى في مدارس دمشق ، وأكملها في بيروت •

عمل في مطلع شبابه أستاذا للتاريخ والادب العربي في الكلية العلمانية ــ اللاييك ــ تلك المدرسة التي درس فيها في بيروت •

ثم عاد الى دمشق ، فأصدر مجلة « الاصمعي » ثم جريدة « المفيد » ، وقد صادرتها السلطة العثمانية •

نظم الشعر الغزلي والاجتماعي والوطني ، وجمع منه ديوانا أسماه « عبث الشباب » لكن النار التهمته كما التهمت المطبعة التي كان يطبع فيها •

قصائده الوطنية في دمشق أزعجت الانتداب الفرنسي وأقضت مضجعه ، لانها كانت تلهب الجماهير ، وتدفعهم الى الثورة والتحرر ، فما لبثت السلطة الغاشمة أن أصدرت حكمها عليه بالاعدام •

وفر الزركلي الى يافا ، ومصر ، ومكة ، وقضى في البلد الحرام بضعة أشهر ، ثم ألقى عصا الترحال في عمان وقضى فيها عامين ، ثم عاد الى مصر ، واشتغل بالاعمال الحرة ، لكن حظه كان تاعسا ، فاندفع الى الترحل عنها من جديد ، وراح يتردد بين القدس ، ويافا ، ومصر ، والحجاز • وفي هذه الاثناء أصدر في القدس جريدة « الحياة » يومية بعد أن كانت تصدر أسبوعية •

ويشاء الله أن يبتسم له الحظ ، فتصله رسالة من الامير فيصل بن عبد العزيز ــ رحمه الله ــ سنة ١٩٣٤ يقترح فيها أن يكون الزركلي مستشار المملكة العربية السعودية في مصر ، وممثلها في تأسيس الجامعة العربية ، والموقع باسمها على ميثاقها •

وتدور الايام ، ويتنقل الزركلي بين الوظائف الدبلوماسية والعواصم ، ويعرفه الناس باسم « السفير العالم » وتضمه المجامع العلمية الى عضويتها في دمشق والقاهرة وبغداد وغيرها •

ويصدر عددا من المؤلفات ، منها : ما رأيت وما سمعت ، وعامان في عمان ، وديوان شعر ، وماجدولين والشاعر ، وأخيرا معجم الاعلام •

في الساعة الرابعة تماما كانت يدي على جرس الشقة الحادية والعشرين فيبناية الهازار تستأذن بالدخول• وفتحت لي الباب امرأة ، وقادتني الى غرفة المكتبة،

وأذكر – يقينا – أني لم أر للغرفة جدرانا ، لان رفوف الكتب كانت تحجز رؤيتها حتى السقف ·

وزاغت عيوني بين الكتب ، فلم أر الا كتب التراث والتراجم ··

وخطر لي في تلك اللحظة سؤال : هل يستطيع انسان فرد ، لم يمتهن التجارة ، وليس له مورد الا راتبه، أو تقاعده من الراتب أن يقتني مثل هذه النفائس من الكتب والمخطوطات النادرة ، بل هل يمكن أن يكون لدى صاحب هذه المكتبة قرش واحد مدخر لحاجات حياته اليومية ؟··

ودخل الاستاذ الكبير هاشا باشا ، مسلما ، مرحبا ، كأنه يعرفني من زمن بعيد ، وأجلسني على كرسي ،وجلس على آخر ، دون أن يفصل بيننا حاجز ، اللهم الا ما يكون بين كرسيين متجاورين ·

ذكرت له مقطوعته التي حفظناهافي المدرسة الابتدائية « عصفورة النيربين » فطلب مني انشادها ·· فامتثلت·· فطرب وأشرق وتألق ·· ثم أخرجت له مقطوعة «يازمان» من كتاب حملته بيدي حين جئت ، وكان عنوانه : « من أحسن ما قرأت » – وهو مختارات لاكابر الادباء العرب في القرن العشرين – وسألته : أتذكر هذه القصيدة يا أستاذ ؟

أخذ الكتاب من يدي ، ونظر في القصيدة مليا ، ورفع رأسه وقال : كيف لا أذكرها ، وهي جزء من حياتي، وهل ينسى الانسان حياته ونفسه ؟ ·

رجوته أن يقرأها بصوته ، ليكون لها لونان من الجمال : جمال الصوت وجمال القصيد ·

وراح ينشد :

متى ترى ، تبتسم لي ، يا زمان ؟
ألا حنان ؟

أسلمتني ، لا أنس لي ، ولا أمان
للحدثان

عيناي – لما تبرحا – تجريان
نضاختان

أبكي ربوعا ، لا تطيق الهوان
رهن امتهان

أبكي ديارا ، خلقت للجمال
أبهى مثال

أبكي تراث العز ، والعز غال
صعب المنال

أبكي نفوسا ، قعدت بالرجال
عن النضال

أبكي جلال الملك ، كيف أستحال
الى خيال

ما لرحابي ، وجنان الرحاب
أضحت يباب ؟

أين أولو طعانها ، والضراب
أين الحراب ؟

ما بال شيب عربها والشباب
غير غضاب ؟

وما ان انتهى الاستاذ من نشيدها حتى تجرأت على سؤاله عن سبب تركه ساحة الشعر والقوافي ، مع أن قصائده الوطنية والعاطفية ما تزال تنضح بالمشاعر الدافئة ، والعواطف الصادقة، والروعة ، وبديع الجمال··

وبتواضع الانسان الكبير قال : ما رأيك اذا قلت لك : أنا لم أترك الشعر ، بل لم يتركني هو ، فما زال بيننا وصال ، فانا الى اليوم أنظم ، وأترنم بالقول الجميل، ولكني الى الاعراض عنه أميل ·

هذا الاعراض ليس ابن الساعة ، ولكنه ذو عمر طويل ، يكاد يمتد الى خمسين سنة الى وراء ·· ولولاه ما خرجت الى الناس بكتابي « الاعلام » ·· ويخيل الي أني خدمت به بلادي وأمتي بمثل ما خدمتها بالشعر ·

ولكني أرى أن نظم قصيدة واحدة يستغرق زمنا ، ويحتاج الى تفرغ ، وخيال، وابتعاد عن المشاغل · والعمل في « الاعلام » يستحوذ علي ليلي ونهاري ، ويغرقني في بحر من القراءة والكتابة والتأليف ، لا أجد بعده سانحة أتفرغ فيها لعمل آخر ·

صدقني أني عملت خمسين سنة في كتاب « الاعلام » وقضيت معظمها في الوقت الذي أرحت نفسي فيه من الشعر ·· أنا ما تركت الشعر أبدا ، ولكن العمل في

« الاعلام » كان يقتضي التفرغ الكامل لها ، وعمل خمسين سنة ليس بالقليل ·

ثم أني أجد نفسي اليوم بعد أن أصدرت الطبعة الثانية للاعلام في عشرة أجزاء في مشكلة جديدة ، هي أني ما قمت بواجبي حق القيام ·· لقد كان علي أن أوفي ما استطعت حق الكتابة عن أشخاص لم أتعرض لهم في « الاعلام » في الطبعتين الاولى والثانية ·

والذي أثار المشكلة الحادة في نفسي ذهابي الى المغرب منذ خمسة عشر عاما ، وتمثيلي حكومة صاحب الجلالة الملك فيصل ـ رحمه الله ـ ·

هذا الذهاب الى المغرب أيقظ فيّ شيئا غريبا ·

تساءلت : أين أنا ؟ أبحث عن علماء المغرب ،فأراهم كثيرين ، ورجالات المغرب في التاريخ كثيرون ، وشخصيات المغرب العربي كثيرون ·· كل هؤلاء ليس لهم تراجم عندي ··

هل أنا مقصر ؟ بالطبع : لا · لاني أخذت المصادر التي حصلت عليها ، ونقلت منها ، ومصادر المغرب وشخصياتهم وكتبهم كانت غائبة عني حين كنت أعمل في مصر والحجاز والرياض وفي غيرها من البلاد ·

عندئذ ، قررت ـ وأنا في المغرب ـ أن أشتغل في « الاعلام بمن ليس في الاعلام » ليكون ملحقا للاعلام ، وجعلت وقتي كله في استدراك ما فاتني ، ورأيت أخيرا أن أسميه بدلا من « الاعلام بمن ليس في الاعلام » : « التعريف والاعلام بمن ليس في الاعلام » دفعا للالتباس من قراءة « الاعلام » المكسورة الهمزة « الاعلام » بفتح الهمزة ·

والمستدرك هذا ، تستطيع أن تراه الان · انه في هذه الدفاتر ، أو هذه المجموعات ·

وقمت مع الاستاذ الى زاوية الغرفة ، لارى ثماني وعشرين مجموعة ، كل مجموعة تختص بحرف من حروف الهجاء ، فالاولى لمن يبدأ اسمه بالهمزة ، والثانية لمن يبدأ بحرف الباء ، وهكذا ·

وفتحت أحد هذه الدفاتر ، فوقعت عيني على « السمنودي » في ورقة مستقلة ، وبجانبه تاريخ ولادته ووفاته بالسنوات الهجرية ، وتحتها تاريخهما بالسنوات الميلادية مطبوعة على الالة الكاتبة بالحبر الاحمر ·ولاحظت الترتيب نفسه الذي في الاعلام ، وكذلك الحاشية في أسفل الصفحة كحاشية الاعلام ·

ونبهني الاستاذ الكبير الى الحاشية ، وأنها غير المصادر التي هي في الاعلام ، وأنها من كتب المغاربة ·

وأضاف قائلا : هذه المجموعات تشكل حتى الان ست مجلدات أو سبعا · أربع منها اذا لم أعملها أنا ، فان أحدا غيري لا يستطيع عملها · وسامحني اذا قلت : اني لا أشكو ، وانما أحكي وأصف ما ألاقي وأعاني · ولقد تستغرب اذا قلت : اني أعمل فيها ليل نهار ، قدر استطاعتي · واذا كان كثير من الناس يشتكي من الارق ، فأنا لا أشكو منه ، بل أنا على العكس ، أفرح به وأرحب·· فغرفتي التي أنام فيها بجوار هذه الغرفة ، وحين أحس بعدم قدرتي على النوم ، لا أتقلب ولا أتململ ، ولا أشكو ، وانما أنهض حالا ، وأضع على كتفي شيئا يقيني من البرد ، وأجلس وراء طاولتي وأبدأ بالمراجعة والتدوين ، فتنقضي ساعة أو ساعتان أو أكثر أو أقل ، ثم أشعر أني بحاجة الى راحة ونوم ، فأعود الى فراشي فاذا أنا غارق في نوم عميق ·

حياتي كلها وهبتها لهذا العمل ، وكم أمني النفس أن يمد الله في أجلي أياما أو شهورا أو سنين كي أنجز هذا العمل ، وأخرجه الى الناس كاملا··

وكم فكرت طويلا لو أن الله اختارني الى جواره ·· فماذا سيكون مصير هذا كله بعدي ؟ وأتمنى أن أعرف أحدا من الناس اليوم يستطيع أن يتسلم مني هذا كله ويكمله، وأنا أقدمه اليه بكل طيبة خاطر ، وسرور قلب ··

ومع هذا ، فلقد احتطت لطوارىء الاجل ، ومباغتة الموت ، ولا سيما أني تجاوزت الثمانين ، اذ وضعت في أحد مصارف بيروت مبلغ خمسين ألف ليرة لبنانية ، وسجلت حسب الاصول القانونية والشرعية هذا المبلغ باسم « مجمع اللغة العربية بدمشق » لينفقه بعد وفاتي على انجاز هذا المشروع ، واستكماله ، واصداره الى الناس ، لعلهم ينتفعون به ، ويدعون الله لصاحبه خير الدين الزركلي ·

الامر الآخر هو أن لي مكتبة عامرة بالمخطوطات

والمطبوعات في مدينة القاهرة ، ولسوف أسافر بعد مدة قريبة الى مصر لاجمع ما فيها في صناديق ، ثم أرسلها هدية مني الى المكتبة العامة في جامعة الرياض اعترافا بجميل المملكة علي ، وخدمة لطلاب العلم ، وأملاً في ثواب الله وأجره • أما هذه المكتبة ، فلسوف أقرر مصيرها بعد اصدار الطبعة الجديدة للأعلام وللتعريف والاعلام ان شاء الله •

أني لاشعر شعورا غريبا أني في سباق مع الزمن ، وأريد أن أنجز عملي هذا على خير وجه قبل حلول الاجل ، ولا أظنه الا قريبا •• وأظنك توافقني على أن هذا خير من نظم قصيدة ، أو الاشتغال بتدبيج أبيات أو مقطوعة غزلية •• والوقت الذي احتاجه لنظم قصيدة أوجهه الى مراجعة أربعة كتب أو خمسة ، وكتابة سيرة رجل لم يكتب أحد عنه قبلي •

رد على ذلك أن مطابعنا — والحمد لله — تقذف لنا في كل صباح عشرات المؤلفات والدراسات ، والتراجم ، والبحوث ، والتحقيقات الجديدة ••• وهذا الانتاج الجليل يحتاج الى مراجعة ، واطلاع ، وتدوين •

والتقاليد الجامعية درجت على أن يكون عمل طالب شهادتي الماجستير والدكتوراه — أحيانا — تحقيق مخطوط ، أو جمع ديوان شاعر •• ولا بد من معرفة ما يجري في هذه الجامعات ، وما تنجز من أعمال ، ثم لا بد من تسجيل كل هذا في مواطنه المناسبة أولا بأول •

كذلك الشأن في المجلات ، وما تقدمه من بحوث ، أو اشارات •• .

ولا أكتمك أن هذا العمل لا يكفيه أن تقعد في بيتك ، وتنتظر أن يأتيك ساعي البريد بالجرائد والمجلات وجديد المطبوعات ، بل لا بد لك من أن تتحرك انت وتذهب الى هنا وهناك ، لترى ما لا يمكن ان تراه وأنت في بيتك •

ولهذه الغاية ، فأنا أسافر في كل عام — على الاقل — مرة ، الى مصر ، ومنها الى اوربا ، وأعوج في طريق عودتي على تركيا ، ثم أعود الى بيروت •

وحين أزور تركيا وأكون في استانبول أزور «السليمانية» وأقصد مكتبتها النفيسة العامرة بالمخطوطات ، وفي غالب الاحيان أنتقل من السليمانية الى الجبال ، والى مناطق لا تزال مجهولة الى يومنا هذا ، وفيها مخطوطات عربية نادرة ، لا أظن ان لها نظيرا في العالم ، وكثير منها بخط مؤلفيها أنفسهم ، وموضوعاتها في التاريخ والادب والفلسفة والدين ••

حدث مرة أن كنت في استانبول أفتش عن كتاب خاص ، فلم أعثر عليه ، وفجأة رأيت صديقا ، وسألته عن الكتاب ، فقال : انه موجود في بلدة اسمها « مغنيسا » فركبت السيارة الى مغنيسا ، وقضيت احدى عشرة ساعة في الطريق اليها ، ولما زرت مكتبتها رأيتها من أغنى المكتبات لكنها دون فهارس حديثة ، وانما جذا ذات موضوعة في تصرف الباحثين ، وهي تملأ اثني عشر درجا ، ورحت استعرض الدرج الاول ، خلال صيف كامل ، وعدت في الصيف التالي لاستعرض مخطوطات الدرج الثاني ، وظللت أعاود الزيارة سنة بعد سنة الى أن اطلعت عليها جميعا •

ومع هذا ، فلا يزال أمامي بلاد عدة ، فيها كنوز لم يكشف النقاب عنها بعد ، ولم يكتب أحد عنها سطرا واحدا •

وخطر في بالي سؤال يتصل بصور أصحاب التراجم الجديدة ، أو صور توقيعاتهم أو خطهم ، فلم أكتمه فقال طيب الله ثراه ورضي عنه •

يحزنني اذا قلت لك : اني بقدر ما كنت في الماضي متحمسا ومولعا بهذا الامر غدوت اليوم زاهدا فيه الى حد كبير •• والذي زهدني ما ألقاه من عقوق الابناء للآباء وانتشار هذا العقوق في مستويات كثيرة •• وقد أرحت الابناء من طلبي لصور آبائهم وخطوطهم وتوقيعاتهم •

وقد تتساءل عن سر هذا الزهد ، ولكنك لن تعجب اذا قصصت عليك ما صرت ألقى •

أنت تعرف أني لا أترجم للأحياء ، وطلبي لصورة رجل ميت لا يداخله شك ، أو يعتريه ريب في حسن نيتي وصدق عملي •

اتفق لي مع عدد من الاشخاص أن طلبت منهم صورة لآبائهم أو قطعة من خطوطهم ، أو توقيعاتهم ، أو خطاباتهم ••• فما أجابوني بجواب يرضيني •• وأيقنت أن هذا لون من العقوق •

في احدى المرات هتفت الى أحد الاشخاص في مصر ، وطلبت منه صورة والده ، بعد أن عرفته شخصي وهدفي ، فجابني على الهاتف بلهجة فيها كثير من التأنيب : يا أخي • تطلب مني مثل هذا الطلب مباشرة وبلا استئذان ، لقد كان عليك في البدء أن تقدم طلبا ، وتعرفني شخصك وقصدك كتابة ، وتطلب موعدا لمقابلتي ، حتى اذا أذنت لك ، طلبت مني ما تريد ، أما أن تأخذ الهاتف ، وتدير قرصه • وتتحدث معي مباشرة ، وتطلب مني طلبات فذلك ••• وما كان مني الا أن اعتذرت اليه ، وقلت له : استغنيت عن الطلب •

أفليس هذا عقوقا ؟

في مرة أخرى ، أردت أن أترجم للشيخ مصطفى عبد الرازق في مصر بعد أن انتقل الى جوار ربه ، وكنت أجهل اسم أبيه ، وأبيت أن أكتب الترجمة دون أن أذكر اسم والد هذا العالم ، فلقد درجت على ذلك في كل أعلامي •• كتبت الى أخيه الشيخ علي عبد الرزاق ــ وهو رجل فاضل ــ أسأله عن اسم أبيه فقط ، وبينت له اني بصدد الكتابة عن أخيه الشيخ مصطفى بمناسبة وفاته •

أتعرف بم أجابني ؟ لقد أرسل اليّ رسالة مطولة يقول في جملتها : اني آسف جدا لعدم تلبية طلبكم ، لاني الآن بعيد عن كتبي ومكتبتي وأوراقي ، وأنا موجود اليوم في (العزبة) ، ولا بد لي بعد العودة الى القاهرة ــ ان شاء الله ــ أن أتصل بكم ، وأفيدكم فيما طلبتم •••

وتسائلت : هل طلبت منه الا اسم أبيه فقط ، وما معنى أنه الآن في (العزبة) وبعيد عن كتبه وأوراقه • وهو يجهل أحد اسم أبيه في العزبة ويعرفه في القاهرة ؟

ومع هذا ، فلسوف أترجم للشيخ علي عبد الرزاق نفسه اليوم ، لانه رجل فاضل ، رحمه الله ، وغفر له •

ورأيت أن الاوان حان لننتقل الى موضوعات أخرى أشد التصاقا بحياته الخاصة ، ومشاعره الانسانية فقلت :

ألم تشتق ــ سيدي ــ الى الشام التي طالما حننت اليها ، وغنيتها أعذب ألحانك ، وفديتها بأغلى ما يفدى الانسان وطنه وبلده ؟

قال : ــ رضي الله عنه ــ وكيف لا أحن اليها ، وهي الام والاب ، وهي الماضي والذكريات ، وتأملت في جبالها وأشجارها ، وطفت بضواحيها •• ولكني اليوم ازهد في زيارتها ، وأستوحش بها ، لاني صرت أرى الجمادات فيها ، وأفتقد الاحباب ، والاتراب ، والاصحاب •• أفتش عنهم فلا أراهم ، وأسأل عنهم ، فيقال لي : ماتوا •

لقد مات معظم أحبابي وأصحابي ، وكلما سألت أحد الناس عن اسمه ، ذكره ، فعرفت أباه وجهلته ، وأكثر من هذا ، غاب عني الاب والابن اللذان كنت أعرفهما وواجهني الحفيد الجديد الذي أجهله •

الاشخاص الذين كنت أسعى اليهم في دمشق ، أرشف من علمهم ، أقتبس من فضلهم ، أتملى بطلعتهم •• غابوا عني أو غاب معظمهم عن عيني ، وسمعي •• فأصابني الزهد ، واعتراني الفتور للعودة الى دمشق ، وللبقية الباقية الصالحة فضل كبير اذ تزورني بين حين وآخر هنا في بيروت ، فتوفر عليّ الزيارة ، وتغنيني عن مشقة ما عدت قادرا على احتمالها دائما ، وخير مثال على ما أقول : زيارتك الكريمة لي في هذا النهار المبارك الطيب •

وحانت مني التفاتة الى النافذة ، فلحظت أن الشمس قاربت الغروب ، وأن الادب يقضي أن أودع وأنصرف ، ولكن النفس تأبى أن أفارق هذا العالم الكبير•• وتمنيت أن أطلب منه صورة له موقعة بخط يده ، ألا أن الحياء غلبني ، وقلت في نفسي : حسبي أنه انطبع في قلبي ، وتمليت طلعته ، وقعدت بين يديه ، وسمعت صوته ، وكان لي وحدي ساعة من زمن كنت فيها جليسه الخاص •• فتلك خير صورة ، وأطيب ذكرى •

رضي الله عن الزركلي وأرضاه •

د • بكري شيخ أمين

رسائل وبرقيات

صديقي الكريم الحبيب الاستاذ سليم الزركلي أطال الله بقاءه وحماه :

أكتب اليك ، وبي من الحزن ما يعلم الله مداه ، معزيا بوفاة عمك صديقي الجليل شاعر العربية الخالد وأجل من كتب سير الرجال في عصرنا الاستاذ خير الدين الزركلي .. وقد كنت أتوقع نبأ شفائه من دائه ، فاذا بي أسمع نعيه ، وهكذا غلبت مشيئة الخالق جل وعلا مشيئة المخلوق ، والرزيئة بوفاة الزركلي الطيب السيرة والسريرة رزيئة أمة يفقد من أعلامها قليل النظير ، تميز بأفضل ما يتحلى به الرجال من مزايا ومثل . أما احساسي بفقدي اياه أخا كريما ، وصديقا حبيبا صادق الود ، فالله سبحانه وحده الذي يعلم عمقه وشدته .. واني اذ أخصك بالتعزية أجدني شريكك في هذا المصاب الجلل . تغمد الله الفقيد الجليل برحمته ورضوانه وأسكنه جنته مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا ، وأحسن عزاءك به وجملك بالصبر، ولا حول ولا قوة الا به ، وانا لله وانا اليه راجعون .

محمد بهجت الاثري

سيادة الاستاذ رئيس مجلس ادارة النادي العربي

أشكر لكم أجزل الشكر عن عزمكم على الاحتفال بتأبين حامل لواء الشعر والجهاد أخي وصديقي المرحوم خير الدين الزركلي كما أني أشكركم دعوتي الى الاسهام في هذا الاحتفال لاقوم بواجب الاخاء والصداقة على قدر الامكان وقد شرعت في اعداد كلمتي وعنوانها :

خير الدين الزركلي حامل لواء الشعر والجهاد

وسأرسلها اليكم متى تمت راجيا أن ينوب عني في القائها صديقي الاستاذ سليم الزركلي .

حفظكم الله وجزاكم خير جزاء

بلودان : شفيق جبري

تحية طيبة وبعد ،

فقد تسلمت أمس الاول خطابكم المؤرخ في ٥/١/ ١٩٧٧ ، ودهشت لهذا التأخير ، وكم كنت أود أن أسهم ولو بكلمة في تأبين مجمعي كبير وباحث فاضل . ولكن لم تتح لي فسحة كافية من الوقت لاداء هذا الواجب فأسفا ومعذرة . وأتساءل متى يصلكم اعتذاري هذا ؟

وتقبلوا خالص التحية ،

ابراهيم مدكور

نحييكم ونفاخر بكم بتوليكم مهمة شريفة بتأبين الفقيد الكبير الشاعر الفحل المرحوم خير الدين الزركلي فاحياء ذكرى أبي الغيث يمليه الواجب القومي ويحتمه احترام الكلمة وتقدير الموهبة ويقتضيه الاعتراف بالجميل والعطاء الادبي والتضحيا لوطنية .

أمين الغوري

سيمثل مجمع اللغة العربية الاردني في حفلة تأبين المرحوم خير الدين الزركلي الامين العام للمجمع الاستاذ عيسى الناعوري رحم الله الفقيد الكبير رحمة واسعة .

رئيس المجمع العلمي

سيادة الاستاذ صلاح الدين نجيب باقي

أطيب التحيات

وبعد ، فقد تلقيت رسالتكم الكريمة بشأن حفل تأبيني المرحوم الاستاذ خير الدين الزركلي عشية اعتزامي على السفر متغيبا عن بلدتي . واني اذ أقدر للنادي العربي اهتمامه بذكرى هذا الرجل العربي الكبير في وطنيته وفي شاعريته وفي علمه ، أجدني آسفا لاضطراري الى الاعتذار عن عدم المساهمة المتواضعة في جهودكم النبيلة بسبب هذا السفر ، وعن عدم تمكني من حضور الحفل الذي سيقام لتأبينه . اني واثق انكم ستجدون بين عارفي مكانة المرحوم الاستاذ الزركلي ، وهم كثيرون والحمد لله ، من سيفونه حقه أو ما يقارب حقه من التعريف والاكرام في حفلكم هذا أو في العدد الذي ستصدره الثقافة الدمشقية . ويظل للنادي العربي فضل المبادرة الى احياء الذكرى وفي تعريف الجاهلين وتنبيه الغافلين .

لكم الشكر لمبادرتكم ، ولحسن ظنكم في توجيه الدعوة الي ، والله يوفقكم ويحفظكم .

المخلص عبد السلام العجيلي

كلمة أسرة الفقيد

ألقاها: سليم الزركلي

أيها السادة الاوفياء

كم يشق علي أن أقف موقفي هذا ، ولكنها مشيئة الله ، ولا راد لمشيئته • لم يكن خير الدين الزركلي ابن دمشق وحدها ، بل كان ابن سورية ، ابن بلاد الشام ، ابن الجزيرة العربية ، ابن الوطن العربي الكبير ، ابن الامة العربية ••

حمل هموم أمته منذ شب عن الطوق ، فنافح بقلمه وفكره ومشاعره ، في سبيل حريتها واستقلالها • وتغنى بأمجادها ، فملأ عيون الناس ، وقلوبهم وعقولهم •

لم يطق البقاء في وطنه ، وقد احتلته جيوش الفرنسيين ، فغادر دمشق اثر وقعة « ميسلون » في ٢٤ تموز ١٩٢٠ الى فلسطين فمصر فالحجاز ، وفي ٩ آب ١٩٢٠ صدر حكم المجلس العسكري الحربي ، باسم الامة الفرنسية باعدامه مع نفر من اخوانه ، سياسيين ووجهاء وأدباء وصحفيين • ومصادرة جميع أملاكهم [حيث ثبت أن المذكورين استعملوا التدابير المادية ، وقواهم العقلية بمعاضدة أعداء الحكومة الفرنسية] •

فتجنس بالجنسية العربية في الحجاز عام ١٩٢١ ، وانتدبه الملك حسين بن علي لمساعدة ابنه الامير عبد الله، وهو في طريقه الى شرقي الاردن ، فعاد مع جماعة من اخوانه ، وساهموا في انشاء الحكومة الاولى في عمان ، فسمي مفتشا عاما للمعارف ، فرئيسا لديوان رياسة الحكومة من ١٩٢١ ــ ١٩٢٣ •

وفي خلال هذه المدة أوقفت السلطات الفرنسية ، تنفيذ الحكم بحقه فعاد الىدمشق ليصطحب أسرته الى عمان، وأرسلتاليه السلطة الفرنسية بعض أصدقائه من الوزراء، ليقنعوه بالبقاء في دمشق ، فرفض أن يبقى ، مؤثرا حياة الاغتراب عن بلده الذي أحبه ، على البقاء في جحيم الاحتلال ••

ولما نشبت الثورة في سورية عام ١٩٢٥ على الاحتلال الفرنسي ، أذاع الفرنسيون حكما ثانيا باعدامه لنشاطه في تغذية الثورة ، ومؤازرة المجاهدين •

وفي عام ١٩٣٤ عين مستشارا للمفوضية العربية السعودية في القاهرة وأخذ يلي أعمالا سياسية وللمملكة، فكان أحد مندوبيها في مداولات انشاء جامعة الدول العربية وتوقيع ميثاقها •

وانتدب عام ١٩٤٦ لادارة وزارة الخارجية السعودية بجدة ، بالتناوب مع صديقه المرحوم الشيخ يوسف ياسين، وفي عام ١٩٥١ سمي وزيرا مفوضا ومندوبا دائما للمملكة لدى جامعة الدول العربية بالقاهرة •

وفي ١٩٥٧ عين سفيرا للمملكة العربية السعودية لدى المملكة المغربية ، فظل فيها عميدا للسلك السياسي حتى عام ١٩٦٥ حين اعتلت صحته ، فأذن له جلالة المغفور له الملك فيصل في الاقامة ببيروت • على أن يظل برتبة سفير في وزارة الخارجية السعودية ، حتى أواخر أيامه •

فاليكم أيها السادة الاوفياء ، الممثلة فيهم دمشق وبعض شقيقاتها من المدن العربية ، وللسادة المتكلمين الذين تفضلوا فوفوه حقه ، مروءة وتقديرا لمكانته في ميادين العلم والادب والجهاد ، كل الشكر وأجزله لمشاركتكم النبيلة ، من جميع أفراد الاسرة •

أما أنتم يا أعضاء النادي العربي ، الذين أعددتم لهذا الاحتفال ، مشكورين مقدرة جهودكم ومشاعركم ، فاستمعوا لما قاله في مستهل كتابه « عامان في عمان » عن دخوله مع اخوانه يوم السبت في ١٢ شباط ١٩٢١ عمان للمشاركة في انشاء الحكومة الاولى • قال :

« ••• فاستقبلنا قائم مقامها ، وقائد دركها ، وجمهور من الخيالة والرجالة ، كانوا يهتفون بحياة العرب والاستقلال ، وينشدون الاناشيد الوطنية التي كانت تعيد لنا ذكرى « النادي العربي » في دمشق وأيامه المحجلة الغر ••• » •

فقد وصلتم اليوم بين الماضي والحاضر ، وكأن شريط هذا النادي الذي بدأ عام ١٩١٩ ، وساهم عليه رحمة الله في تأسيسه ، لم ينقطع ، فكان في هذا الاحتفال صلة الوصل بين زمني « النادي العربي » •

كلمة النادي العربي

ألقاها : هشام دياب

وضح اليقــين فاقسموا الايمانا
واستشهدوا الانجيل والقرآنــا

بهذا الاستهلال الرائع ، وقف المرحوم خير الديـن الزركلي في النادي العربي ، في الثلاثين من شهر تموز ١٩١٩ يلقي قصيدته المعنونة بعنوان « يا رافدين » ، وكان النادي العربي ، الذي قام أول ما قام ، في العهد الفيصلي ، عندما كانت فكرة العروبة ما تزال في مطالعها، قد تأسس حديثا ، ولكن نشاطه لم يدم طويلا فاحتجب بعد الاحتلال الفرنسي ، تحت نير الاستعمار ، ثم عاد ليتشكل من جديد ، مع بواكير الاستقلال في عام ١٩٣٧ ، ليختط خطة الجهاد والتوعية في سبيل القضية العربية • وقد كان طوال حياته المديدة ومن منبره المتواضع ، الجذوة المتوقدة، التي تنـير السبيل وتذكي الحماسة ، وتدعو لمقارعـــة الاستعمار ولارساء وحدة العرب •

وان النادي العربي ليفخر اليوم ـ ونحن في عهد التخطيط والبناء ـ أن يساهم بما يتمتع به من رصيد لدى الاوساط المثقفة في الوطن العربي ، وبما يملك من طاقات فكرية ذاتية وما يرفده به أصدقاؤه من دعم وقوة، أن يعلن بانه يتابع مسيرته حاملا مشعلا من مشاعل الثقافة، والعمل البناء ، في هذا الجزء من الوطن العربي الكريم•

والنادي العربي ، اذ يقيم هذا الحفل التأبني ،

الذي هو بحق ، تكريم للمناضل الكاتب الشاعر ، المرحوم خير الدين الزركلي ، ليشعر أنه يؤدي أمانة بعنقه ، ويقوم بواجب تفرضه عليه طبيعة كيانه وسلوكه ، ولئن كنا قد التقينا هنا ، لنستعيد ذكرى مواطن عربي كبير ، أدى الامانة ، ثم ارتحل عنا الى الملأ الاعلى ، فان هذا التكريم في اعتقادي ، أقل ما يمكن أن يقدمه ، بلد ما ، لاحد أبنائه البررة ، ممن يحملون علم الجهاد وينذرون أنفسهم للنضال والتضحية والفداء • والزركلي ، في سيرته وكفاحه ، وفي انتاجه الفكري من شعر ونثر ، أحد هؤلاء الاعلام الكبار الذي يفرض واجب المواطنية تجاههم التكريم والتخليد •

وما أحسب الا أن روح الزركلي ، ترفرف علينا الان ، راضية مرضية ، وهي ترعى هذا القوم الذين اجتمعوا على محبة صاحبها وتقديره ليستعيدوا سيرته الخيرة ويستذكروا أدبه وعلمه ويعربوا عن اقرارهم بفضله •

ان النادي العربي ليتقدم بأجزل الشكر والوفاء للاساتذة الكبار الذين شاركوا بأبحاثهم وقصائدهم في هذا الحفل •

يتقدم بالشكر للدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة والارشاد القومي :

يتقدم بالشكر للاستاذ الكبير شفيق جبري

يتقدم بالشكر للاستاذ الكبير أكرم زعيتر

يتقدم بالشكر للاستاذ الشاعر عبد الرحيم الحصني

يتقدم بالشكر للاستاذ الدكتور عدنان الخطيب

يتقدم بالشكر للاستاذ الدكتور شكري فيصل

يتقدم بالشكر للاستاذ الشاعر سليم الزركلي

كذلك يتقدم بالشكر الجزيل للاستاذ الدكتور شاكر مصطفى ، رئيس قسم التاريخ في كلية الاداب بجامعة الكويت ، وللاستاذ الدكتور عمر الدقاق عميد كلية الاداب بجامعة حلب ، وللاستاذ الدكتور بكري شيخ أمين على أبحاثه القيمة التي وافانا بها •

كذلك يشكر النادي العربي أولا وآخرا السادة الوزراء ، ورئيس مجمع اللغة العربية بدمشق وكبار المسؤولين ورجال الدين الذين ساهموا في هذا الحفل بحضورهم ويخص بالشكر الجزيل الاستاذ الكبير عيسى الناعوري الذي قدم الينا من القطر الاردني الحبيب ممثلا لمجمع اللغة العربية الاردني •

وهو يشكر أيضا الاستاذ عبد المنعم الرفاعي عضو مجلس الاعيان الاردني ، ورئيس مجلس الوزراء السابق على برقيته الرقيقة ، ويشكر الدكتور ابراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية في القطر المصري الشقيق على رسالته التي وافانا بها ، والتي يعرب فيها عن أنه لعدم توفر الفسحة الكافية من الوقت لاداء واجب المشاركة في هذا الحفل كما يشكر الاستاذ أمين الغوري من القطر الاردني الشقيق على برقيته الرقيقة ، وكذلك يشكر الدكتور عبد السلام العجيلي على رسالته الرقيقة ، كما يتقدم بالشكر للشيخ محمد بهجت الاثري والاستاذ حسن الحكيم على رغبتهما بالمشاركة واعتذارهما الرقيق •

والنادي العربي يخص بالشكر الدكتور غيث الزركلي نجل المرحوم خير الدين الزركلي وجيع آل الزركلي الذين قدموا من القطر المصري الشقيق للمشاركة في هذا الحفل ويقدم لهم أحر تعازيه بفقيدهم الغالي •

كذلك يشكر النادي الاخوة الذين ساهموا معه في تنظيم هذا الحفل ويخص بالشكر الاستاذ سعيد الجزائري الذي كان محور هذا التنظيم ويشكر كذلك الاستاذ مدحت عكاش الذي ساهم مساهمة خيرة فيه ، والذي خصص عددا من مجلته الثقافة ، لخير الدين الزركلي يضم فيه ، كل ما قيل في هذا الحفل ، وما وافانا به الاساتذة الادباء من أبحاث :

كذلك يشكركم النادي العربي أجزل الشكر ، يشكركم جميعا على مؤازرتكم الكريمة بحضوركم هذا الحفل •

عاشت بلادنا عزيزة كريمة

ورحم الله شهداءها ومجاهديها الابرار رحمة واسعة والسلام عليكم ورحمة الله •

دفاعاً عن راية الثورة حتى النهاية

جون مون سوب

كلما عدت بناظري الى المجرى المظفر الذي جراه النضال المسلح ضد اليابان ، يستأثر بتفكيري ما لدى الزعيم العظيم للاربعين مليونا من الشعب الكوري ، الرفيق كيم ايل سونغ ، من اندفاع ثوري دائب ، واستراتيجية وتاكتيك بارزين .

وشأنه طوال المجرى الطويل الذي جراه النضال المسلح ضد اليابان ، فقد كانت المعركة التي دارت في منطقة موسان في شهر ايار عام ١٩٣٩ ، والتقدم ثانية الى منطقة الحدود في مطلع عام ١٩٤٠ ، برهانا كاملا آخر عن الاندفاع الثوري الفائق لدى الرفيق كيم ايل سونغ ، وعن الظفر الباهر الذي هو نصيب استراتيجيته وتاكتيكه الممتازين .

ان المعركة المظفرة التي دارت رحاها في منطقة موسان شهر أيار عام ١٩٣٩ بقيادة الرفيق كيم ايل سونغ البارزة قد كانت ضربة قاصمة للامبرياليين اليابانيين الذين كانوا يتخبطون آنذاك كالمسعورين في حربهم على البر الصيني ، وقد الهمت اذهان الشعب الكوري قناعة بالظفر ، وشجعته وألحت عليه بالمضي في النضال ضد الامبرياليين اليابانيين .

وبعد مهاجمة منطقة موسان ، رحنا نحن القوة الرئيسية من الجيش الثوري للشعب الكوري ، نتقدم الى منطقة هوار يونغ ، شرقي جبل بايكدوسان ، حيث تابعنا عملياتنا .

ان نقل مركز عملياتنا الى تلك المنطقة كان مثالا آخر يبين الالمعية والحكمة البارزتين في قيادة الرفيق كيم ايل سونغ .

وبعد قيام الامبرياليين اليابانيين بحملة اعتقالات كبيرة لاعضاء جميعية بعث الوطن وغيرها من المنظمات الثورية السرية ، واصلوا فرض نطاق صارم على المنطقة الواقعة الى الجنوب الغربي من جبل بايكدوسان . أدرك الرفيق كيم ايل سونغ الوضع الراهن على الوجه الاصوب ، فاتخذ تدبيرا حكيما في نقل مركز العمل الى المنطقة شرقي جبل بايكدوسان . (كانت توجد في هذه المنطقة قاعدة جماهيرية مجربة من الوجهة الثورية منذ مطلع الثلاثينات ، وهي منطقة متاخمة لارض الوطن من الوجهة الجغرافية) . حيث لم يكن انتباه العدو هناك بالغ الصرامة .

ولدى الوصول الى هوا ريونغ ، أرسل الرفيق كيم ايل سونغ بعض العاملين السياسيين لاقامة الاتصال مع المنظمات المحلية وجعلهم ينظمون فروعا لجمعية بعث الوطن ولجمعية مناهضة اليابان ، مما وطد القاعدة الجماهيرية للثورة . وفي هذه الاثناء ، نظم العمل التمهيدي وفاده لانزال ضربة جدية اخرى بالعدو .

كانت وحدتنا في صيف ١٩٣٩ تعمل على مقربة من نهر أولكي . وقد ذهب الرفيق كيم ايل سونغ بصحبة رجال القيادة العامة الى اكدولكول ، وهي قرية حدود تقع على نهر تومان كانغ ، فاتصل شخصيا بأهل المحلة من جهة ، وعهد من جهة اخرى للرفيق كيم جون (وهو لقب للرفيق لي دونغ كول) بمهمة القيام بالعمل السياسي في تلك المنطقة بغية توحيد الجماهير في المنظمات الثورية واقامة الاصال مع منطقة موسان .

استمد الرفيق كيم ايل سونغ من التجربة المكتسبة في العمل السياسي بمنطقة تشانغباي ، فوجه العاملين

السياسيين الى تشكيل جماعات مسلحة صغيرة والقيام بنشاطاتهم وهم متجولون • وقد بقي الرفيق كيم جون في المنطقة مع بضعة رفاق مسلحين •
وفي الوقت ذاته انشغلت وحدتنا بالاستعداد لقضاء فصل الشتاء •

وبعد ما اختفت وحدتنا من وادي نهر أولكي ، ركز الاعداء « قواهم التأديبية » هناك ، وفتشوا الجبال يائسين طوال الصيف دون أن يعثروا لنا على أثر • ثم عمدوا الى اقامة « قيادة تأديبية » في كيل ليم ، وأربطوا قواهم المسلحة ـ وهي وحدات من « جيش كانتو » ، و «جيش الحملة الياباني في الصين » ، والجيش المنشوري العميل ، والدرك ، والشرطة ، وقوة الدفاع الذاتي ـ في كل ناحية ولمدة طويلة ، ووضعوا المنطقة برمتها تحت الحراسة المشددة •

كما عمد الاعداء الى ما امكنهم من المراوغات الشريرة ، مثل اقامة ما اسموه « لجنة كيل ليم » التابعة لـ « القيادة التأديبية » ، بغية وضع « مخططات العمليات التأديبية » • كانت اللجنة تضم رؤساء وحدات الجيوش ، وأجهزة القضاء ، ومخافر الشرطة ، والاجهزة الادارية ، ودائرة المخابرات ، وبعض « الخبراء في عمليات التاديب ضد اللصوص الشيوعيين » •

هكذا قامت « قوى تأديبية » كبيرة للعدو ، في النصف الثاني من عام ١٩٣٩ ، وبعدها رابطت فترة طويلة في كل واد من منطقة هوا ريونغ ، تمشط الجبال الشامخة والوديان السحيقة •

في مثل هذا الوضع ، كان من الصعوبة بمكان بالغ شن الهجوم على العدو ، مع اتخاذ المبادرة على الدوام •
غير ان الرفيق كيم ايل سونغ قد نوه بأن الضرورة تقتضي وفي الوضع الراهن من باب اولى ، بالعمل على وجه العزم والاقدام • وقد رسم مخططا للعمليات البارعة بغية كيل الضربات المتتالية للعدو في أضعف نقطة لديه •
قاد الرفيق كيم ايل سونغ شخصيا وحدتنا في نهاية صيف ١٩٣٩ الى محافظة تونهوا ، ذهابا من تخوم محافظتي هوار يونغ وآنتو •

وعندما وصلت وحدتنا الى الغابات النائية من تونهوا ، هاجمنا أولا مخشبة في ليو غوا سونغ واخرى في جاسنز •

أستهدفنا من مهاجمة هاتين المخشبتين ، بقيادة الرفيق كيم ايل سونغ ، ان نفرق « قوى التدديب » المعادية المحتشدة في منطقة هواريونغ وآنتو ، والتي كانت قادمة تلاحق وحدتنا ملاحقة حاميه • وفي الوقت ذاته ، كنا نريد توسيع صفوفنا وتقويتها بتجنيد العمال من المخشبتين في وحدات حرب العصابات •

ذهل العدو تماما من هذه العمليات البارعة التيخرجنا بهامن منطقة هواريونغ،لنهاجم المخشباب الكبيرة في تونهوا بسرعة البرق • كان العدو يظن ان القوة الشيوعية لم تستطع الافلات من نطاقه ، مهما اوتيت من قدرة على التحليق في الفضاء أو الغوص تحت الارض • ثم انه كان يستبعد من تصوره احتمال تقدم وحدتنا نحو الشمال •

استجمع العدو انفاسه بعد ما تلقى التقرير العاجل عن الهزيمة الساحقة التي نزلت بقواه في ليو غوا سونغ وجاسنز ، فهرع جنوده الى الغابات النائية من تونهوا •

غير ان وحدتنا كانت آنذاك قد حملت ما وسعها من الغنائم وجندت عددا كبيرا من المتطوعين ، وصلت الارض المتاخمة لمحافظتي آنتو وموسونغ •

كان الرفيق كم ايل سونغ شخصيا قد خطب على اثر معركة جاسنز ، في المئات من العمال الذين جاءوا لحمل الغنائم على ظهورهم •
وما زال مضمونخطابه الذي ألقاه في عمالالاخشاب حيا في ذاكرتي ، ولبه ما يلي :

••• ان شعبي كوريا والصين يئنان من وطأة الاضطهاد والاستغلال الشرس نتيجة العدوان الامبريالي الياباني •

اننا حرمنا من وطننا ومن كل حقوقنا ، وقد حل بنا مصير هو مصير شعب لا وطن له •
يقول المثل الكوري : ان شعبا بلا وطن أتعس من كلب في دار بها ميت •
شعب بلا وطن ! يا للعار !

انكم ابناء الشعب البررة وينبغي لكم ان تضطلعوا جميعا بمصير الوطن والشعب •

كيف يمكنكم التزام موقف المتفرج عندما يدوس اللصوص اليابانيوناللئيمة احباءكم من آباء واخوة دوسا بالاقدام !

ان وحدات حرب عصاباتنا هي جيش للشعب يقاتل المعتدين الامبرياليين اليابانيين ، في سبيل حرية الوطن وتحرره ٠

فاذا كنتم تتمنون تحرير وطنكم الغالي واستقلاله ، وتريدون ان تخلعوا عنكم الحياة المخزية التي يحياها شعب بلا وطن فاستبسلوا في قتال الامبرياليين اليابانيين ٠

وكل من يريد أن يقاتل العدو معنا بالسلاح ، ألا فلينضم الى وحدات حرب العصابات ! ٠٠٠

وعندما فرغ الرفيق كيم ايل سونغ من خطابه ، نهض عامل شاب كان يجلس في الصف الخلفي ، ورفع ذراعه وصاح : « أنا سوف أقاتل ! » وقد تبعه عدد من العمال ونهضوا وعرضوا الالتحاق بوحدات حرب العصابات ٠

هكذا انضم جديدا الى وحدتنا اكثر من ٢٠٠ رجل ، بما فيهم الذين تم تجنيدهم في ليو سونغ ، لمواصلة توسيعها وتقويتها ٠

وسار أعضاء وحدتنا بمعنوية عالية الى تخوم محافظتي آنتو وموسونغ ، وعندما اقتربت وحدتنا من بايك سوك تان في محافظة موسونغ أصدر الرفيق كيم ايل سونغ الاوامر استعدادا لحط الرحال لقضاء الليلة وبناء مسرح مؤقت ، مع أن الوقت كان ما يزال قبل المغيب ٠

تلقى الجميع هذا الخبر بسرور ٠ قطعنا بعض أشجار الحور الرجراج بنينا بها مسرحا مؤقتا متسعا ، وضعنا ستارا بقماش الخيام والصقنا برنامج الحفلة ٠

قاد الرفيق كيم ايل سونغ شخصيا برنامج الاداء ٠ فتح الستار لدى سماع صوت صفارة ، وقدم برنامج مشكل يتضمن الغناء الجماعي والفردي والرقصات وحتى تمثيلية تمثل نشاط حرب العصابات ٠

كنا جميعا مرحين ٠ وكان المستجدون على وجه الخصوص لا يسعهم الا يدهشوا لكل هذا — ظهور مسرح كبير فجأة في الغابات العميقة ، يقدم عليه برنامج زاهي الالوان ٠

وقفز بعض المتطوعين الصينيين الجدد من تلقاء أنفسهم الى المسرح وغنوا بمرافقة الآلة الوترية الصينية هو غونغ ٠

كانت حياتنا مليئة بالتفاؤل الثوري ، وكانت ثقتنا بالظفر أعظم منها في أي وقت مضى ، ولو ادخل التطويق بنطاقين أو ثلاث نطاقات ضربتها حولنا قوة عدوة كبيرة كانت تقترب من منطقة تونهوا لحصرنا في المصيدة ٠

وبعد ذلك ، نظم الرفيق كيم أيل سونغ وقاد الدراسات العسكرية والسياسية في معسكر بايك سوك ان السري في حوض نهر سونغ هوا كانغ ٠ كان المكوث طويلا جدا في مكان واحد واجراء الدراسات العسكرية والسياسية على نطاق كبير أمرا يكاد يستحيل تصوره ٠

ولكن الرفيق كيم ايل سونغ ، استنادا لدراسته لتحركات العدو ، استنتج أن العدو لن يتمكن من تحديد موضعنا قبل زمن ، فرسم مخططا جريئا ونضاليا للقيام بتدريب كثيف للمستجدين ٠

كان هذا اجراء بالغ الحكمة ، ترقبا لعمليات أوسع نطاقا يتوقع أن تحدث في الآتي القريب ٠

قسم الرفيق كيم ايل سونغ فصل التدريب كله الى مرحلتين ٠ كان مفروضا أن ينتهي الرجال من دورة التدريب في المرحلة الاولى ، وأن يراجعوها مرةأخرى خلال المرحلة الثانية ، لكي يتعرفوا الى الموضوع بمزيد من الامعان ٠ كان هذا مخططا منظوريا نضاليا يمكن الرجال من تلقي الكفاية من التدريب العسكري والسياسي لمواجهة العدو منذ فراغهم من الدورة الاولى ، اذا ما حالت الظروف دون مواصلتهم الدورة الثانية ٠

وكانت طريقة التدريب هي الاخرى نضالية ٠

تقرر أن تتنافس السرايا ويتنافس الافراد بعضهم مع بعض في التدريب العسكري والسياسي ، وأن تمنح جوائز ، أولى وثانية وثالثة ، تبعا للنتائج ٠

كان التدريب العسكري والسياسي كيثفا منذ اليوم الاول ٠ كانت الدراسة السياسية تتم في كل سرية ، حيث يلقي الموجهون السياسيون المحاضرات ٠

كان بعض المستجدين قليلي الثقافة ، بحيث أن الرفاق المتقدمين كانوا يعلمونهم دروسهم فرديا ٠

أما الاميون ، فكانوا يلقنون بضعة حروف ، أو يحملون على تعلم أحد الشعارات أو بضعة اسطر من الجمل استظهارا وكتابة كل يوم ٠

كما اتبعت طريقة تعليمهم نشيدا يعرض منهاج جمعية بعث الوطن ذا النقاط العشر ، لتمكينهم من فهم محتواه ٠

وبفضل الطرق التدريسية المختلفة التي ابتكرها الرفيق كيم ايل سونغ مباشرة ، صار المستجدون جميعا ، بعد شهر واحد ، قادرين على القراءة والكتابة ، وراح وعيهم السياسي يزداد ارتفاعا ٠

وقد شدد الرفيق كيم ايل سونغ الاهتمام بالتدريب العسكري خاصة ، في الوقت الذي ينظم الدراسة السياسية ·

ولم نتعلم تاكتيك حرب العصابات وحسب ، بل والفن الحربي لدى الجيش النظامي أيضا ·

تولى الرفيق كيم ايل سونغ شخصيا تعليم القادة وأعضاء القيادة العامة نظام التدريب للجيش النظامي ، كيف يدربون ، وكان يوجه شخصيا على الدوام تدريب التاكتيك والرماية ·

ولا يسعني أن انسى حق هذا اليوم كيف علمنا سر تفكيك وتركيب شتى أنواع السلاح بمهارة ، وكيف أرانا شخصيا فن الرماية ·

كنا في تلك الايام نستخدم اسلحة غنمناها من العدو ، ولذا فقد كانت مختلفة في أنماطها وكيفية استعمالهاوقليل من كان يستطيع استعمالها جميعابسهولة·

غير أن الرفيق كيم ايل سونغ كان يفك ويركب أي نمط من الرشاش والبندقية والمسدس بمهارة ، وكان مضرب المثل لدينالعلو كعبه في التسديد ·

كنا مصممين أن نغدو جنوده الممتازين ، الضليعين مثله في التاكتيك والسلاح والرمي ، فنذرنا أنفسنا بجماع القلوب للتدريب العسكري ·

ولدى الفراغ من المرحلة الاولى على هذا النحو ، ألفينا بانفسنا ليافة أعظم كثيرا من ذي قبل سياسيا وعسكريا · ويوم اختتام المرحلة الاولى ، لخص الرفيق كيم ايل سونغ نتائج المباراة في التدريب العسكري والسياسي ، ومنح للفائز الاول ساعة ، كما منح قلم حبر لكل من الفائزين الثاني والثالث ·

كنا جميعا سعداء فيتلكالليلة ، وسرعان ما استسلمنا للنوم العميق · ولكن حدث نداء طارىء فجأة عند منتصف الليل · تاهب الجميع للعمل ، وسرعان ما انتضوا سلاحهم وجهازهم ، ورفعوا الخيام ورتبوا أدوات الطهي في لمحة بصر ·

قدم قائد سرية الحرس والرفاق قادة الالوية تقاريرهم الى الرفيق كيم ايل سونغ عن حالة التعبئة للطوارىء ·

استعرض الرفيق كيم ايل سونغ الصفوف ، ثم التفت الى المكان الذي كانت الخيام قد ضربت فيه ·

لم يكن ثمة ما ترك فيه ، لا سلاح ولا تجهيز ولا حتى قصاصة ورق ·

كان بالغ الرضى من نتيجة نداء الطوارىء

لخص نتيجة نداء الطوارىء ، قائلا في هذا الصدد :

··· انها نتيجة تستدعيالانتباه أن يكون المستجدون قد أجادوا التدريب بهذا القدر في غضون ما لا يزيد عن شهر واحد · وكما أرى ، فبوسعكم لتقدم نحو أرض الوطن منذ الآن ···

ثم كان أحد الايام من مطلع عام ١٩٤٠ ، وقد تصرمت عشرة ايام منذ بداية المرحلة الثانية منالتدريب· اضطررنا لمغادرة المكان دون انهاء الدورة ، لان العدو قد اكتشف موضع معسكرنا السري وشرع يجهز علينا بقوة كبيرة ·

وجد العدو أثرنا ، فركز كل « قواه التأديبية » في الهجوم على وحدتنا ، مدعيا انه سوف يبيد اللصوص الشيوعيين عن آخرهم عندما يقضي على وحدات كيم ايل سونغ » ·

وبينما دأب العدو يلاحقنا ، ربط جنوده مسبقا على سلاسل الجبالوفيالوديان ، وهم يتواصلونباللاسلكي· كان العدو يائسا حقا ·

والى جانب هذا ، استخدم العدو « جمعية الوفاق » ، و « سينسون داي » المؤلفتين من كلابه الجارية ، لنشر الدعاية الكاذبة ، وعمد الى حيلة ممكنة لكي يحملنا على الاستسلام ·

ألقيت في كل جبل وواد نشرات عديدة كتب عليها : « لم يبق سواكم · لا تتهوروا في متابعة المقاومة ، بل أرضخوا » · حتى ان العدو أرسل بعض المرتدين لحملنا على الاستسلام · كما ترك بعض الكعك والطعام المسموم في الاكواخ الجبلية · لقد لجا الى شتى صنوف الحيل الشريرة ·

في وجه هجوم للعدو بلغ هذا المبلغ منالعتو ، عمدت حفنة من الجبناء الى الفرار والاستسلام ·

ولدى ظهورر المرتدين ، قال الرفيق كيم ايل سونغ حازما :

··· لا فائدة ترجى من هذا النفر حتى لو بقوا في وحدتنا · تعلمون أن أحد أناشدنا الثورية يقول : « فليذهب الجبان في سبيله ، أما نحن فسوف نذود عن الراية الحمراء ! » اننا سوف نذود عن راية الثورة الكورية حتى النهاية ···

كان الوضع بالغ الصعوبة ، غير ان الرفيق كيم ايل سونغ قد استنبط مخططا ايجابيا نشيطا للتقدم ونشر الثورة الكورية · فبدلا من تحاشي العدو ، وضع مخططا شاخصا للتغوير مرة أخرى على منطقة الحدود ، على منطقة موسان ، حيث كانت تتركز قوة العدو ·

أرسل الرفيق كيم ايل سونغ أحد مقاتلي حرب العصابات الى جهة تشانغ بيونغ من منطقة موسان ، لتقصي الوضع هناك بالتفصيل · كان ينوي القيام مرة

أخرى بالتوغل داخل الوطن لكيل ضربة ماحقة للامبرياليين اليابانيين والهام الشعب الكوري الذي كان يتالم في جحيم للأحياء ، بثقة متجددة في بعث الوطن وفي انعاش الامة ٠

قاد وحدته الى منطقة الحدود نافذا من خلال حراسة العدو المشددة ، ملقيا العدو في الاضطراب بتاكتيكه البارع ٠

نفدت مؤونتنا ابان ذلك ، وصرنا نواجه الخطير من الصعوبات ٠ وكان مجفف الصويا الذي حصلنا عليه في المخشبات قد نفذ عندما قطعت وحدتنا هوالاتزو وبلغت وادي تامالوكو ٠

أرسل الرفيق كيم ايل سونغ فريق استطلاع الى مخشبة تامالوكو استعدادا لمهاجمتها بقصد الحصول على الطعام ٠

عادت علنا غارتنا على تامالوكو بغنائم وفيرة ، ومنها مئات الاكياس من دقيق القمح ٠

وبعد المعركة ، قاد الرفيق كيم ايل سونغ وحدتنا الى غابة هوالاز الكثيفة ، على تخوم محافظتي هواريونغ وآنتو ، مع تمويه آثارنا بمهارة حيثما سرنا ٠

هرع العدو الى تامالاكو ، حيث ضرب مؤخرتنا ، ولكن الرفيق كيم ايل سونغ قد تملص من العدو بحيلته البارعة ٠ فما كان للعدو الاالعودة الى تامالوكو خالي الوفاض راح العدو يرغي ويزيد حانقا ويقول : « ها نحن وقعنا مرة أخرى في الفخ على أيدي الجيش الشيوعي ٠٠٠ » أعاد العدو تجميع قوته وراح في غيظه يمشط وادي تامالوكو ٠

بعدما أضاعت وحدتنا الاثر على العدو بصورة بارعة ، كانت آنذاك تعسكر قرب هوالاز ، فقدر الرفيق كيم ايل سونغ كم من الوقت سوف يقتضي من العدو حتى يلحق بنا ، ووضع المخططات لكيل ضربة له ٠

وكما توقع كيم ايل سونغ ، تسلل كشافو العدو طبعا الى خط حراسة وحدتنا ليلا ٠ ولكن ما أن ضربناهم ضربا قويا حتى فزعوا فاقدين روعهم ولاذوا بالفرار ، مخلفين وراءهم خارطة عسكرية ٠

بعدما تفحص الرفيق كيم ايل سونغ الخارطة، أصدر أمره الى قائد اللواء أو بايك ريونغ بما يلي :

« العدو في اعقابنا ٠ فاذا لم نصده ، سوف يواصل ملاحقتنا ٠ خذ بعض رجالك واذهب اطعمه قتلة هذه الليلة » ٠

لم يمض وقت طويل على مغادرة قائد اللواء أرض المعسكر ،حتى سمعنا طلقات من رصاص البنادق تصم الآذان وتمزق الهواء في الوادي من دوننا ٠

عاد قائد اللواء أو بايك ريونغ بعد زمن وقدم تقريره الى الرفيق كيم ايل سونغ ٠ قال ان جنود العدو قد اشعلوا نيران المخيم هنا وهناك ، وانهم كانوا يزعقون الاوامر الى الفلاحين الذين سخروا عنوة لقطع الاشجار ٠ فحتى عندما اقتربت مجموعته الصغيرة وصارت منهم قاب قوسين أو أدنى ، لم ينتبهوا اليها قط ٠ قام عندها الرفيق أو بايك ريونغ ورجاله بانزال ضربة قاسية بالعدو وانسلوا جانبا خارج المشهد تاركين الاعداء المهتاجين يقاتل بعضهم بعضا خبط عشواء ٠

عندها قال الرفيق كيم ايل سونغ ضاحكا : « لن يأتي العدو في اعقابنا الآن ٠

لم يعد العدو يلاحقنا منذ اليوم التالي ٠ علمنا فيما بعد ان جنود العدو قد اقتتلوا في تلك الليلة فيما بينهم ، فقتلوا نيفا وستين منهم وجرحوا أكثر كثيرا مما قتل ٠ بذلك ولى العدو الادبار وهرب على جناح السرعة ، حاملا معه الجرحى وجثث القتلى ٠

ذهبت وحدتنا وصعدت احد التلال في هوالاز حيث استراحت لبضعة أيام ٠

وبعدما تعبت قوى العدو من ملاحقتها اليائسة عادت الى جحرها ، فقاد الرفيق كيم ايل سونغ وحدتنا مرة أخرى نحو تشانغ بيونغ ٠

كان هذا حوالي نهاية آذار ١٩٤٠ ٠ بدأت وحدتنا تهبط جبلا عاليا على طول سلسلة سطعت عليها الشمس وأخذ الثلج بالذوبان عنها ، متجهة الى تامالوكو ٠

وقبل مضي زمن طويل ، التقينا بالفلاحين الذين سخروا عنوة لنقل ذخيرة العدو ، أخبرونا ان قوة معادية كبيرة كانت قادمة في أعقابنا ٠ وفي هذا الوقت بالذات ، تفشى في وحدتنا نوع من المرض ٠ كان علينا أن نحمل المرضى على النقالات وهذا ما أبطأ من سرعة سيرنا ٠

أمر الرفيق كيم ايل سونغ وحدتنا بالتوقف حوالي مطلع النهار ، وقال انه ينبغي اعطاء المرضى شرابا ساخنا حتى ولو كان الموقف يستدعي العمل السريع ٠

وبعدما أعطى المرضى عصيدة رخوة ، انتقى الرفيق كيم ايل سونغ بضعة رجال وأمرهم بالانسلال واتخاذ طريق ملتف مصطحبين معهم بعض الطعام ، واقامة معسكر سري ، عميق آنذاك ، كما يحدث كل مرة ، لمحبته العطوفة لرجاله ٠

وبعد حمل المرضى الى مكان أمين ، استأنفنا المسير الا أنه أمرنا بتغيير وجهة السير نحو الجنوب الشرقي بدل التوجه الى تشانغ بيونغ ٠ راحت وحدتنا الان تنعطف عن اتجاه منطقة الحدود وهبطت الى بطن الوادي المؤدي الى مخشبة تامالوكو ٠

وأثنا المسير ، بقي الرفيق كيم ايل سونغ يدرس معالم الارض ويراجع الخارطة ٠

أمرنا الرفيق القائد في ذلك اليوم أن نحط الرجال أبكر من المعتاد على مقربة من تامالوكو، لاسباب لم نعلمها٠

كان هذا التاكتيك غير مألوف بتاتا نظرا لوجود العدو في أعقابنا ٠

وقبيل فجر اليوم التالي ، ناقش الرفيق ايل سونغ مع الرفاق قادة الالوية اتجاه العمل المقبل المرسوم للوحدة٠ قال :

٠٠٠ « علينا اليوم أن ننزل ضربة بالعدو الذي يطاردنا ٠ فاذا ما أتحنا له أن يتعقبنا على الطريق الى موسان ، فسوف يصعب علينا أن نهاجم نشانغ بيونغ ٠ وليس هذا وحسب ، بل انه لسوف يصعب علينا التنصل بعد الهجوم ، حتى لو نجحنا في الاقتحام ٠ لا بد أن نصفي حساب مطاردينا أولا ، حتى ولو كان علينا أن نرجيء التقدم الى منطقة موسان ٠٠٠

بهذا ، أصدر أوامر القتال ٠

كانت هذه مقدمة معركة هونغ غي هو الشهيرة ، التي أبيدت فيها وحدة مايدا من الجيش الياباني في أقل من لمح البصر ٠

كانت الضربة التي أنزلت بوحدة مايدا قاسية الى حد أن وحدة بونغ تشون (قوة كبيرة تابعة للجيش المنشوري العميل) التي كانت تقتفي أثر وحدة مايدا لم تتمكن من الاقتراب ، بل أطلقت النار عن بعد دون تمييز ، حتى انتهت المعركة ٠ كما أن قوى حامية العدو التي هرعت من سامجانغ عبر الحدود ، لم تجرؤ هي الاخرى على الاقتراب من الميدان بل اكتفت باطلاق نيرانها عن بعد ٠

قال الرفيق القائد مبتسما : « انظروا الى هؤلاء الازلام ، انهم أجبن من أن يقتربوا ٠ انهم بهذه النار التي يطلقونها عن بعد ، وكأنهم يتوسلون الينا أن نفتح الطريق ٠ طيب فلنعطهم بالرشاشات ما يبغون » ٠

أمطرنا العدو بوابل من الرصاص ، بالرشاشات الست التي كنا قد غنمناها لتونا ٠ انسحب العدو عند ذلك على عجل ، حتى انه لم يعد يطلق النار من بعيد ٠

غير أن الرفيق كيم ايل سونغ قد حسب مسبقا بأن العدو ، وان كان قد صعقه الرعب في معركة هونغ غي هوا، الا أنه لا بد من أن يقوم بتفتيش منطقة الحدود بكل صخب ، وان يأتي يتعقب وحدتنا يائسا ٠ وعلى هذا الاساس ، فقد أجلى وحدتنا بكل هدوء في اتجاه هولاز ٠

وفي غضون بضعة أيام ، كانت « قوى التأديب » العدوة متركزة في منطقة الحدود وفي محافظتي هوا ريونغ وآنتو ٠

كان الوضع في الاطراف الشرقية من جبل بايكدوسان بحيث لم يبق ثمة مكان لخطوة واحدة الى الامام ٠

غير أن وحدتنا تابعت تقدمها عبر هذه الصعاب ، بقيادة الرفيق كيم ايل سونغ التي كانت تتميز بالاندفاع الثوري الجارف ، وبالروح النضالي الذي يقضي بتولي المبادرة مهما كانت صعوبة الظروف ، وبكيل الضربات للعدو متتالية ، مفيدين من نقاط الضعف لديه ، كما كانت تتميز بالتاكتيك المرن العبقري ٠

وحتى في هذا الموقف العصيب ، أرسل الرفيق كيم ايل سونغ بعض العاملين السياسيين الى زي اين كانسغ وليوسوتشون في محافظة آنتو ، بغية توحيد الجماهير حول جمعية بعث الوطن وجمعية مناهضة اليابان ، مضيا في توطيد القاعدة الثورية باستمرار ، ومن جهة أخرى ، فقد نظم العديد من عمليات الهجوم ، لكيل الضربات الى العدو واحدة بعد أخرى ٠

عندما تنصلت وحدتنا من شباك تطويق العدو وبلغت سان دوكو في محافظة آنتو ، خطط الرفيق كيم ايل سونغ عمليات جريئة لمهاجمة ثلاث قرى في آن ، بحيث لا يتمكن العدو من تمييز رأس المسألة من ذنبها ٠

نزل اللواءان السابع والثامن وسرية الحراسة في آن واحد ، كل على قرية واقعة في اتجاه يختلف عن الاخرى ٠

بدا ذلك للعدو وكأنه وميض برق في سماء الصحو ، فأوقعه في اضطراب شديد ٠ وعندما رأى هذه البلدات الكبيرة التي خالها آمنة تماما تنزل الضربات كلها في ان، ارتعد العدو خوفا ، وهو يدمدم : « لا بد أن تكون هذه الجيوش جرارة تفوق العد » ٠

وبعد برهة من الزمن ، لملم العدو المصعوق ما تبقى من « قوى التأديب » من المناطق المجاورة على عجل كبير ، وأتى يطارد وحدتنا بحنق عظيم ٠

غير ان وحدتنا قد غطت آثارها بلبقاقة حيث اتخذت دربا لا ثلج فيه يقع على الوجه المعرض للشمس ٠

بحث العدو عن وحدتنا عبثا طوال الليل ، ولم يكن له من خيار الا العودة بخفي حنين ٠

هكذا دافعت وحدات حرب العصابات المناهضة لليابان عن راية الثورة حتى النهاية ، بقيادة الرفيق كيم ايل سونغ طوال مجرى النضال المسلح العسير المناهض لليابان ، وهو يوطد القواعد الثورية في كل مكان ذهب اليه ، ويوسع صفوف وحدت حرب العصابات وقواها ويحرز النصر في كل معركة بفضل الاستراتيجية والتاكتيك العبقريين للرفيق كيم ايل سونغ هنا بالذات يكمن السبب الذي مكن الثورة الكورية من الصمود بعناد حتى النهاية، ومكن الشعب الكوري من عدم اضاعة الثقة في بعث الوطن وسط الجو الخانق السائد آنذاك ، وكأنه جحيم على الارض ، ومكن هذا الشعب من لقاء الحدث العظيم ، تحرر الوطن ، على أهبة الاستعداد له ٠

كلما فكرت في هذه الامور ، أجليت في صميم الاسهام الخالد الذي أدلى به الرفيق كيم ايل سونغ للثورة الكورية، وحزمت أمري في الوقت ذاته أن أنذر نفسي لازدهار الوطن وتنميته ، وفق تعاليمه ٠